

السَّيِّدُ الشَّرِيفُ الشَّرَافِيُّ

إِدْبَارُ الْأَخَوَاتِ

obeykandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى . . .

إلى كل أخ يضع يده في يد أخيه ليكون من هذا الرباط
الروح المقدس وسيلة للتقدم البشرى والعون الإنسانى .

إلى الإخوة فى المنصورة ومعهم ذقت لذة الكفاح .

إلى الإخوة فى الكويت وقد عرفت بهم انفساح الدائرة
لفكرة الأخوة .

إلى الإخوة فى العراق وسوريا ولبنان وشمال أفريقيا .

إلى كل أخ فى بقاع العالم أقدم هذا تبصرة
بحقوق الإخاء .

ليكون من وراء ذلك الحب والسلام . . .

obeykandi.com

افتتاح

مرحلة الحياة التي نحياها ، أهي فترة نعيشها ، أم نتعلمها ؟
الحق أنه لا يمضي يوم جديد إلا وتلقى فيه درساً جديداً
فاتنا أن نتعلمه منذ عهد بعيد ، ونظل على طول الطريق
نستوضح المعالم . ونستكشف الأسرار إلى أن تغمض
عيوننا فلستريح .

وعندما يكون نصيبنا من هذه الحياة عظيماً ، وجهدنا
بها قويا يكون بلاؤنا بها عظيماً وقويا . وفي باكورة الشباب
حيث تتفجر في سراييننا ينابيع القوة والفتوة تعرض لنا
مشكلات لا حد لها ، لأننا في هذه الحقبة ندق باب الحياة
في قوة وعنف . وكل مشكلة من هذه المشاكل التي تتصل
بعلاقاتنا بالناس ، أو بعلاقاتنا مع معاشرينا ، أو تمتد
إلى نظامنا الخاص أو العام ، تأخذ حظها من الحيرة والصراع
بين جنباتنا . وخلال ظلام هذه المشاكل نلتمس الخلاص ،
ونبحث عن الشعاع الهادي ، الذي قد نلتمسه في نصيحة
مجرب ، أو استفاء لحرر صحيفة . ولكن هذا الضوء لا يغني
العناء الكافي .

فنحن لا نقبل النصح إلا إذا اقترن برغباتنا ، وصادف جانبنا من إرادتنا . أما إذا تعارض مع هذه الإرادة ، فإننا نلقى به دبر آذاننا ، وخلاف ظهورنا . ولهذا كان من التعريفات اللاذعة للمشورة قولهم : « المشورة أن تسأل غيرك موافقتك على مشكلة قطعت فيها برأى ، . وكذلك الحال فى استفتاء محررى الصحف فإن الحكم الذى يعطى للشباب يكون نتيجة لدراسة قاصرة ، مهما بلغ من الدقة لا يكون إلا معالجة لجانب خاص من جوانب المشكلة .

ونخذ مثلاً مما يكثّر حوله الاستفتاء وهو مشكلة الزواج فإن العامل الأكبر لعزوف كثير من الشباب عن الزواج لا يعزى إلى الحاجة أو الظروف الاجتماعية ، وإنما يعزى لحيرة الشباب فى الاهتمام إلى حل لهذه المشكلة على ضوء سليم ، ونهج مستقيم .

والسبيل إلى الخلاص من هذه الحيرة هو أن نعطي صاحب المشكلة فرصة لدراستها بنفسه ، وتبصيره بقواعد الأدب والخلق ، ونوقفه على مواضع العبرة والعظة ليتصرف

بمقتضاها ويعمل على ضوئها . فنتمى فيه الشخصية والاعتداد
بالنفس . ويستطيع على ضوء هذه المبادئ أن يحاسب
نفسه في جرأة وصرامة دون غموض أو خفاء ، كما هو الحال
حين يقوم بعرض المشكلة على سواه ، فإنه يخفى جوانب
هامة من المشكلة لا يرغب في وقوف أحد عليها .

ومحررو الصحف حسنو الظن حينما يعتقدون أن الشباب
في هذه الحقبة يبادر بتنفيذ ما يقدم إليه من مشورة أو إجابة
إذ ليس من السهل على الشباب في هذا العصر الذي تختلف فيه
الآراء والتفسيرات أن ينقاد لرأي صحيفة أو صحفي حينما
يوجهه إلى حل لمشكلته .

وإذا كان الأمر كما أسلفت فليس من الخير أن يتولى
الأساتذة في المدارس ، أو المحررون في الصحف ، فرض
آرائهم على الشباب ، وإنما علينا فقط أن نعينهم على التفسير
الصحيح لمبادئ الخلق وقواعد الشرف ومناهج الاستقامة .
وما يقال عن مشكلة الزواج يقال عن غيرها .

ولكن أين يجد الشباب هذه المبادئ ؟ أيلتمسها من

قصاصات الصحف والمجلات ؟ أم يطلبها في بطون الكتب ،
وخفايا المراجع وخباياها ؟! والحق أن المكتبة الإسلامية
غنية بالحديث عن الأخلاق والآداب العامة ، ولكنها
كتب جامعة حشدت فيها صفات الفضائل ومكارم الخلق ،
فلا تتيح الفرصة للقارىء العصري كي ينتفع بما حوت . فحياتنا
الحاضرة حريصة على الزمن والجهد والسرعة والتخصص .

ولهذا فكرت في إصدار هذه السلسلة عن « أدب
الإسلام » ، يعالج كل كتاب مستقل موضوعاً خاصاً من
نواحي هذه الآداب ، في صورة واضحة بأسلوب ملائم
تجتمع فيه خصائص العصر الحديث من السرعة وقلة الجهد
وتخصيص كل مشكلة بحلقة مستقلة .

وقد اخترت بدء هذه الحلقات بالحديث عن (أدب
الأخوة) في الإسلام ، لأن الأخوة عنصر عام يشترك
في معالجته كل من على ظهر هذه المعمورة . وما منا إلا وهو
يحس بحاجة إلى التعرف على نهج الإسلام في معاملة
الإخوان . والمرء بطبيعته مجبول على المعاشرة والمؤاخاة
والاجتماع .

فإذا وفق الله وكتب لهذه الحلقة القبول مضيئاً
في الحلقات الأخرى من آداب الإسلام .

وقد وضعت نصب عيني في هذه الحلقة التي بين يديك
عن دأب الأخوة ، ألا أحلق في سماء الفكر ، فأجعل
منها بحثاً علمياً دقيقاً جامعاً ، يقوم على مناقشة النصوص
واستخراج النظريات ، والاستقصاء في البحث ، والعمق
في الفكرة . حتى يكون بحثاً علمياً يرتفع إلى مستوى خاص :
كما لم أحاول أن أنزل به إلى مستوى شعبي مبتذل ،
أبحث فيه عن الطريقة لاسترضاء العواطف ، واستدرار
الرضا والثناء الرخيص والشهرة الزائفة . وإنما حاولت أن
أسلك سبيلاً وسطاً بين النهجين ، ليجد فيه الخاص ترويحاً
عن نفسه ، وليتمس فيه العجل تحليقة عن مستواه .
والله أسأل أن يجعله لوجهه خالصاً ، وأن يوفق لإتمام
ما بدأت . إنه سميع مجيب .

الشيخ السعيد الشربيني الشرباصي
من علماء الأزهر

ذی الحجۃ سنۃ ۱۳۷۲ هـ
أغسطس سنة ۱۹۵۳ م

القاهرة في

بين المودة والقربى

(١)

من كلام أحد الصوفية :

« إن الأخوين في الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى
مقاماً من الآخر رُفِعَ الآخر معه إلى مقامه ، وأنه يلحق به
كما تلحق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم ببعض ؛ لأن
الأخوة عمل كالولادة ، .

وفي هذا الكلام الهادى البسيط إجابة لحاظة تخطر
بالنفس تستوحى بها أسرار الأخوة وروابط المودة التي تشد
المرء بمن يهواه ، وتربطه بمن يحن إليه ويألفه ، ويهدأ إذا
رآه ، ويستوحش إذا غاب عنه ، ويأنس بالحديث إليه
فيبثه أشجانه وأفكاره ، ويهديه آماله وأحلامه .

لقد كشف الله عن بصيرة هذا الصوفى — وعند ما تصفو
النفس وتستغرق في عالم السماء ترى ما خلف الأستار — وإذا
به يعال الصلة بين الإخوان بأنها عمل تقوم به القلوب ،
فتزاج وتمازج ، فيتولد من هذا الاتحاد الحب وتنمو

الصداقة وتتأكد الألفة والإخاء ، كما أن الأثرى تجتمع بالذكر فيتلاقيان ويتحدان فيكون من هذا التلاقى نتاج هو البنوة .

وإذا استعرضنا التاريخ الإسلامى نجد أن الأمة السمحاء قد أقامت لعمل الأخوة وصلة المودة حقوقاً وواجبات لا تقل بحال من الأحوال عن حقوق صلة القربنى والنسب وواجباتها . وكان أول عمل بدئت به هذه الحنيفية السمحاء — حينما أُذن لها بالفرار من مكة إلى المدينة ، وحينما هاجرت العقيدة من أرض الاضطهاد إلى ملاذ الأمن ، فأصبح لها دار حكم ، ومنزل استقلال — أن أرست قواعدها الأولى ، وافتتحت الدولة الإسلامية الجديدة باسم الإخاء والوداد ، فأخى القائد الأعلى للدولة محمد عليه الصلوات والتسليمات بين المهاجرين والأنصار ، واتخذ لنفسه أخاً من بين صحابته . وقد بلغ من قوة هذا الإخاء وشدة الصلة بين الأفراد أن بعض الأنصار حاول النزول لأخيه عن إحدى زوجاته . وهذا تصرف بعيد فى الإيثار والتضحية ما أظن أحداً يقدم عليه مع أخيه من أمه وأبيه .

وبدت قوة الإخاء في صورة أخرى حينما أقر الإسلام نظام التوارث بين الأخوين في الإسلام . إلى أن نسخ فيما بعد ، وقصر نظام الإرث على أخوة النسب والأصلا ب . وإذا استعرضنا مظاهر الأخوة في الإسلام وجدنا أن لها صوراً ثلاثاً : الأولى وهي أخوة النسب والقربى وتقوم على اتحاد الدماء واتفاق الأصول والأرحام . والثانية أخوة الرضاع وهي تمت بصلة وثيقة إلى الأولى ؛ لأنها تعتمد على وجود اشتراك مادي من (اللبن) بين الأفراد . والثالثة : هي الأخوة في الله ...

(٢)

ولكن أى لون من هذه الأخوة أحق بالتقدير ؟ . نجد أن أخوة النسب والرضاع تعتمد على اتصالات مادية عمادها اللحم والدم ، والأصل والرحم ، والفراش والمهد . فهي إذن تقوم على اعتبارات جسدية صرفة ، يرجع معظمها إلى الصدفة ، وإلى الارتباط القهري بفعل الزمن أو تحت ضغط الظروف .

أما أخوة الود والدين فتقوم على صلة القلب بالقلب ،

وتآلف الروح مع الروح ، واتحاد الغاية والبداية في القصد والهدف . فهي إذن تقوم على مبدأ روحى أصيل ، وعلى عناصر مزاجية صادقة .

وإذا استمعنا إلى ما قاله أحد الحكماء في المقارنة بين الأخوتين نستطيع الحكم عليها . فقد قيل لبزرجهر : « من أحب إليك : أخوك أم صديقك ؟ فقال : ما أحب أخى إلا إذا كان لى صديقاً » . وقال أكرم بن صبغى : « القرابة تحتاج إلى مودة . والمودة لا تحتاج إلى قرابة » . وهذا يدلنا على أن الأخوة الجسدية لا تستوجب الحب ، ولا تستلزم الألفة والود . وإذا تذاكرنا كثيراً من الأسر نجد أن العداوات والخلافات قد تشتد وتتعاظم بين الإخوة فى الأسرة الواحدة . وأعرف رجلاً له أخوات يعشن معه فى مدينة واحدة ، لا تنقصها المواصلات الحديثة ، ولا يشقها نهر عظيم لا يستطيع عبوره ، ومع ذلك لم ير وجه أخواته منذ سنوات ، ومنذ قسم الميراث . وفى هذه الحقبة المديدة لم تخطر ببال السيد الأخ فكرة السؤال عن واحدة منهن ، أو مشاركتهن فى وفاة أزواجهن ، أو السير فى جنازة إحداهن .

وأنا صادق فيما أذكر عن هذا السيد الأخ ، وتصرفه هذا يفسر لنا بوضوح العلاقة التي تقوم بين القرباء ، وأنها علاقة مادية جافة ، وعندما تنتهي الأطماع تزول هذه العلاقات .

وأعرف رجلين آخرين في قرينتنا استحقا السخط من الله ومن الناس لأنهما ظلا عدة أعوام متخاصمين وهما أخوان وجاران يسكن أحدهما وجدار منزله إلى جوار منزل شقيقه الآخر . ولقد أدرك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ببصيرته النيرة ما يمكن أن يقوم بين القرباء من خلاف فكان مما كتبه إلى أبى موسى الأشعرى قوله :

« مر ذوى القربابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا » .
وقد شاع على السنة العامة مثل حزين يصور حالة نفسية مؤسفة وهو قولهم :

« الأقارب هم العقارب » . ولقد قال رجل لخالد بن صفوان : إني أحبك . فقال له : وما يمنعك من ذلك ؟
ولست لك بجار ، ولا أخ ، ولا ابن عم ^(١) .

وفي الشعر العربي مثل رائعة ، وصور طريفة تكشف
لنا عن طبائع النفوس ، وأن الحب ليس وليد القربى .
وإنما هو وليد شيء آخر ، ومن هذه الصور الطريفة ما قاله
ذو الأصابع العدواني :

لى ابن عم على ما كان من خلق
مختلفان فأقلبه ويقلبنى
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا
نخالنى دونه أو خلته دونى
يا عمرو إلا تدع شتى ومنقصتى
أضربك حتى تقول الهامة أسقونى
ماذا على وإن كنتم ذوى رحمى
ألا أحبكم إن لم تحبسونى
وهاك آخر أصابه مثل ما أصاب السابق من بنى عمه ،
يذهب يبت شجونه فى نغم شعري موجه ، ويناجى بنى عمه
بقوله :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا
لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

الله يعلم أنا لا نحبكم
ولا نلومكم إن لم تحببونا
وهذا ثالث وهو الحسن بن هانيء يقول :
وابن عم لا يكشفنا قد لبسناه على غمره
كمن الشنان فيه لنا ككمون النار في حجره
فلم هذا العداء كله ، وهناك رابطة وثيقة من الدم واللحم
والعظم والشحم ؟ أليس ذلك نتيجة حتمية لعدم التآلف
الذي يفتقد في كثير من الحالات بين الأقرباء فيصبحون
الأعداء الألداء . وقد يوجد كثيراً بين الغرباء فإذا بهم
يصبحون الأحباء الأوفياء ؟ وأليس ذلك هو عين ما أشار
إليه أستاذنا الأول محمد - صلى الله عليه وسلم - حين قال :
« الأنفس أجناد مجندة ، وإنها لتتشام في الهوى كما تتشام
الخيال ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .
وقد نظمه الشاعر في قوله :

إن النفوس لأجناد مجندة
بالإذن من ربنا تجري وتختلف

فما تعارف منها فهو مؤتلف

وما تناكر منها فهو مختلف

وهذا شاعر آخر يشارك الصوفي الأول في اتجاهه حين يقرر أن المودة عمل كالولادة، فيرى أن هناك صلوات تقوم مقام النسب إن فقد النسب بين الإخوان . ويرى أن هذه الصلوات تقوم من الإخوان مقام الأب الذي منه تصدر أخوة اللحم والدم . واسمعه يقول :

إن نفترق نسبا يؤلف بيننا

أدب أقنناه مقام الوالد

ويستطيع كل مسلم في أى بقعة من بقاع العالم أن يلقي أخاه المسلم فى أى جهة من جهات المعمورة فيحس أنه يلقي فيه أخاه ، ويطالبه بحقوقه ويؤدى له واجباته ، جاعلا نصب عينه أن ما يربطه به من روابط لا تقل عن روابط الدم ، وأنه إن افتقد الوالد الواحد الذى يجمعهم إلى أصل واحد ، فإنه لا يفتقد العقيدة الواحدة التى تجمعهم فى أسرة واحدة . وما عليه إلا أن يتمثل دائما بقول الشاعر السابق مع تغيير لفظة واحدة منه ليكون التعبير صريحا ، فينشد :

إن نفتح نسباً يؤلف بيننا

دين أقناه مقام الوالد

وقد علمت أيها الأخ أن المرء لا يؤمن حتى يكون الله
ورسوله أعز عليه من ماله وولده ، ومن كل شيء سواهما ..
فتبين على ضوء هذا المقياس موقع رباط المودة والأخوة
الربانية من قلبك ...

(٣)

وليس العامل الوحيد للحب والألفة هو القرابة فحسب ،
بل هناك عوامل أخرى لها أهميتها . وقد بين أستاذنا الأول
السر الأصيل في الألفة والود ، حين حلل النفوس البشرية
فإذا بها أجناد مجندة ، وطيور هائمة تبحث عن أجناسها ،
وتتصيد أشباهها ، لتأوى إليها ، وتخط بأجنحتها حولها .
وأنها كالخيول التي تتشام وتبحث عن أنماطها ونظائرها .
فإذا ما وجدتتها اتحدت معها وتآخت وإياها . أما إذا شمت
ما ليس على نهجها وطبعها تناكرت وتنافرت :

والإلف ينزع نحو الآلفين كما طير السماء على ألافها تقع
والائتلاف يأتي من وجود عنصر مشترك بين النفسين

وهذا العنصر هو الجامع والرابط بين الروحين ، وهو المدار الذى ينجذب نحوه القطران . . . ويكون العنصر المشترك أقوى ما يكون عندما يمس أقوى عاطفة فى النفس البشرية ، ألا وهى عقيدته وإيمانه . وعلى أساس هذه العقيدة ، وعلى مقدار قوتها وثباتها فى النفس تكون قوة ما يبنى عليها ويرتبط بها . وهى لذلك تختلف قوة وضعفا بقدر اتصالنا بالله وتمسكنا بتعاليمه . وعندما تصير القلوب مستمسكة بحبل الله يمتد حبل الله فيربط القلب الفرد بسمط القلوب جميعا وتتكون من ذلك الحلقة المفرغة التى لا تميز بين أطرافها . وعندئذ تتضاءل حبال القربى التى تقوم على النسب أو على المصاهرة :

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم

وبلوت ما وضعوا من الأسباب

فإذا القرابة لا تقرب قاطعا

وإذا المودة أقرب الأنساب

والعقلاء ينظرون إلى بواطن الأمور ، وخفايا الحقائق ،

وإلى ما وراء الظواهر . وهم لذلك لا يعدون القربى لمن قرب

إليك نسبه ، واتصل بك حسبه . وإنما القربى لمن صحت
مودته ، وطابت عشرته ، ولانت عريكته :

ما القرب إلا لمن صحت مودته

ولم يخنك وليس القرب للنسب

كم من قريب دوى الصدر مضطغن

ومن بعيد سليم غير مغترب

وقالوا : « القريب من قرب نفعه » ، وقالوا : « رب

بعيد أقرب من قريب » . وما أصبح يجرى مجرى الأمثال
ما قاله الحكماء : « رب أخ لك لم تلده أمك » .

رب غريب ناصح الجيب وابن أب متهم الغيب

وعندما تتآلف القلوب وتتوافق الطباع وتتشابه الخصال

تتكون العلاقة الأخوية الأصلية التى تهون أمامها أخوة

الآباء ، ويكون من أثر ذلك أن الإنسان يأمن صديقه وإن

كان غريباً ، ولا يأمن أخاه وإن كان قريباً . ويصبح البعيد

موضع الثقة ومرجع الأسرار ، بينما يصبح القريب وهو

موضع الحذر منه ، وتطوى دونه الأسرار :

أخوثة يُسرُّ ببعض شأني وإن لم تدنه منى قرابه

أحب إلى من ألقى قريب تبیت صدورهم لي مسترا به
وإذا كان الغرض من الأخوة هو التعاون في السراء
والبأساء وتحقق هذا بينك وبين قريبك سما القريب وكان
في عداد الإخوان . أما إذا كان القريب قد أثر قطع حبال
المودة ، فإنك تسقطه من الحساب . ويصير نسيا منسيا ،
هو والعدم سواء . وكم من أقارب للمرء لا يخطر أحدهم على
البال إلا إذا ذكر به وهو لذلك كاره ! وكم من قريب نذكره
ولكننا نبادر بإشاحة الخاطر عن ذكره حتى لا تتذكر
النفس بهذه الذكرى ؟ ! وكم من قريب لا نلقاه إلا تكلفا ،
ولا نبادره بالتحية إلا تجملا ؟ !

فصل حبال البعيد إن وصل الـ

حبل وأقص القريب إن قطعه

فإذا وفق المرء في اكتساب مودة الأقرباء ، وتمكين
مودتهم ، واستطاع التغلب على ما يتركه الزمن ودواعي المعاملة
والجوار والأحقاد المتوارثة ، والتنافس البعيد المدى في
نفوس ذوى الأرحام ؛ أصبح هذا المرء من نوادر

الكرماء ، وصار الصديق هو الشقيق ، والشقيق هو الصديق
وصح فيه قول القائل :

وإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدرا أيهما أخو الأرحام

(٤)

ولعلنا بعد ذلك ندرك عن إيمان أن العواطف الأخوية
التي تنبت الود ، وتثمر الحب ، وتدعو إلى التماسك ليست
وليدة الأرحام والأنساب فحسب ، بل إن هذه الوشائج
قد تتهاوى أمام ما هو أقوى منها من صلوات ، وأثبت منها
من أواصر . كما إذا بنيت الأخوة على أساس متين من
العقيدة والدين ، فتظل ثابتة ما دامت العقيدة متغلغلة في
النفوس ، راسخة في القلب ، متمكنة من الفؤاد .

والنفوس التي فتحها الوهاب ذو الأفضال للإيمان تحس
هذه المعاني ، وتشعر بالحب العميق المجرد لغيرها من إخوة
الإسلام ، ولا تجد فارقا يفصل بينها وبين سواها من
النفوس ، وتحس عن صدق وإيمان أن روحها ماهي
إلا امتداد لروح عظيمة قد ألقت مراسيها في مواضع مختلفة ،
ووزعت أجزاؤها على أشخاص متعددة .

وتحس كذلك أنها ماهى إلا صدى من الأصداء المتكررة
التي صدرت عن الإرادة الإلهية حينما قال الخلاق لها :
كونى . . . وتحس أنها نغم مفرد من مجموعة الأنغام التي ينتظم
بها عمار الكون وامتداد العالم . وتحس أن السر الذي أودعه
الله إياها ماهو إلا جزء من سلسلة الأسرار التي تتكون منها
قصة العالم وتاريخ الإنسانية .

وكلما تعمقت الفكرة الجماعية تلاشت الشخصية والذاتية
(الأنانية) ، وبرزت الروح الجماعية التي تضم الأفراد كلها
في خيط واحد ، وتزنهم بميزان واحد .

ولو أراد شخص أن يرجع آصرة العقيدة إلى أساس
اللحم والدم لما أعجزه ذلك . ألسنا من آدم ؟ وأليست أمنا
حواء ؟ فصلة النسب مجردة ماهى إلا صلة اللحم والدم في بدنها
وختامها . وصلة الأخوة ماهى أيضاً إلا صلة اللحم والدم
في أعماق جذورها ، وأول مطافها ، وعميق أدوارها . ولهذا
نستطيع أن نقرر التقاء الأخوتين وتقابلهما في نقطة واحدة ،
وإنما يكون التفاضل بينهما بالود والائتلاف ، والعقيدة والدين .
وإذا كانت صلة النسب القريبة لا يحسب لها حساب إلا إذا

انضم إليها عنصر جديد ووزن آخر وعادل يؤيدها ويقويها ،
ويحميها ويحييها ، فإن صلة النسب البعيدة التي تربط الإنسانية
منذ آدم عليه الصلاة والسلام لا تهض كذلك إلا بعنصر
جديد ووزن آخر يؤيدها ويؤازرها ، ويحميها ويحييها . فإن
لم يوجد هذا العنصر الائتلافي الجديد انعدمت وانحلت ،
وعاد المرء إلى الأنس بالوحوش والنفرة من الناس :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكادت أطيّر

وإذا بحثنا في العناصر التي تربط الناس بعضهم ببعض
وجدناها تفترق بين عناصر مادية كاتحاد الأب ويسمى
الأسرة ، أو كاتحاد المولد ويسمى بالوطن ، أو كاتحاد المهنة
وتسمى الطائفية . وعناصر أخرى روحية كزمالة العلم
وأخوة الدين .

وإذا وازنا بين هذه العناصر المختلفة بين المادية والروحية
نجد أن أقواها وأحقها بالتقديس هي التي تقوم على أساس
من العقيدة والدين .

وبذلك يمكن أن تنادى بوضع كل الصلات والروابط ،
لترفع مكانها روابط الدين الصحيح الذى يمثله الإسلام
الحنيف . وليكن هذا هو المبدأ الأول ، ولا يمنع منه انضمام
عناصر أخرى ثانوية تؤيده وتوازره كعنصر الوطنية
أو المهنة أو النسب

ولكن . . .

ولكن على أن تبقى أخوة العقيدة هى الأساس .

، إنما المؤمنون أخوة

اختيار الإخوان

(١)

من المأثور عن السلف قول أحدهم : « استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة ، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك » . وروى في غريب التفسير عند معنى قوله تعالى : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله » . أن معنى « ويزيدهم من فضله » ، يشفعهم في إخوانهم ، فيدخلهم الجنة معهم . ويقال : إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه .

وإذا علمت يا أخي أن المرء يحشر مع قرينه فانظر — هداك الله — إلى من تختاره ليكون شفيعك يوم القيامة ، وتخير من تحشر في زمرة يوم توضع الموازين بالحق ، ويأخذ كل عبد مقامه ومستواه عند العزيز الجبار . وقد قال الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : « المرء على دين خليله فلينظر أحداً من يخال » .

والصديق كالشوب يشف عن ذوق صاحبه وطبعه .
« وصديق المرء مرآته تراه حسناته وسيئاته » .

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدى

ولهذا كان واجبك أن تدقق في البحث عمن تؤاخي ،
ولا تجعل الصدقة هي الفيصل في الموضوع ، بل تأكد أن
الصدقة معاهدة طويلة الأمد ، قد تمتد مع المرء حتى الأجل
فعليه أن يحسن لنفسه اختيار الرفيق ، واختيار الرفيق
قبل الطريق :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم

ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « صاحب رقعة
في الثوب فلينظر الإنسان بما يوقع ثوبه » .

فاعتبروا الأرض بسكانها واعتبروا الصاحب بالصاحب

وقد اشترطوا في الأخ الصالح عدة شروط :

وأولها العقل : وهو أصل الفضائل ، ولا خير في صحبة
الآحمق ، ومهما طالت صحبته فهي إلى القطيعة والشقاق ،
لأن الآحمق لا يريح نفسه ، فكيف له بالراحة مع غيره .
وقد قال علي رضي الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى حلما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه (١)
وقد يبذل الأحمق وسعه لنفعك ، ولكنه يضرك من
حيث لا يدري .

ولعلنا جميعاً قد قرأنا قصة الرجل والدبة التي كانت تحرس
صاحبها وجعلت كلما نام تطرد عنه الهوام . وفي ذات مرة
سقطت على رأسه ذبابة فطردتها مرة ثم نحتها أخرى ،
ولكنها عادت . . . فما كان من الدبة إلا أنها أخذت حجراً
وضربت به الذبابة وهي فوق وجه صاحبها فهشمت رأسه ،
ومات لساعته . ولهذا قيل في الأمثال : « عدو عاقل خير
من صديق جاهل » .

إني لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا يعتريه جنون

(١) ورد الشعر في العقد الفريد ص ١٦٢ ، ٢ ، وينسب إلى آخرين

وقد قيل : مقاطعة الأحق قربان من الله . وقال الثوري :
النظر إلى وجه الأحق خطيئة مكتوبة .

وحسبك من العقل ما قاله المغيرة بن شعبه حين سئل
عن عمر بن الخطاب — رضوان الله عليه — : كان والله
أفضل من أن يُخدع ، وأعقل من أن يُخدع . وقد قال عمر
عن نفسه : « لست بخب والخب لا يخدعني » .

(٢)

الشرط الثاني حسن الخلق . وقلما يفارق حسن الخلق
العقل . وكلام عمر بصور الرجل الكامل . فهو حين يقول :
« إنه ليس بلئيم ولا بماكر » . وهذا هو حسن الخلق وفي
الشرط الثاني يصور لنا العقل فهو لا يُخدع ولا يُغلب
ولا يُستجهل من أحد لأنه يعرف طبائع النفوس ، فعمر
يعرف الشر ولكن يتحاشاه :

عرفت الشر لا للشر ولكن لتحاشيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وبعض النفوس توهب العقل ، ولكن لا يهديها إلى

كریم المحامد وطیب الخصال . وإنما يسوقها سوقا إلى دنى
الفعال فيتحول أهلوها إلى شياطين تجيد الإيقاع والإفساد
والإتهام والاستغلال . وهذا النوع من الناس أخطر بنى
البشر على الإنسانية . فواجب المسلم الحذر من سوء الخلق
ومقاطعته . وقد قال عمر — رضى الله عنه — حاثا على
طلب الدين في الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب : « عليك
ياخوان الصديق تعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء ،
وعدة في البلاء . » وقد جمع علقمة العطاردى حسن الخلق
في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة ، فقال له : « يا بنى إذا
عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته
صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدت بك مؤنة مانك .
اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى حسنة
عدها ، وإن رأى سيئة سدها . اصحب من إذا سأله أعطاك
وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك . اصحب
من إذا قلت صدق قولك ، وإن حاولتما أمر أمرك ، وإن
تنازعتما أثرك . »

وقال جعفر الصادق : « لا تصحب خمسة : الكذاب

فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ،
ويبعد عنك القريب . والأحق فإنك لست منه على شيء ،
يريد أن ينفعك فيضرك ، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج
ما تكون إليه . والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة .
والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها ، . . . فقيل له :
وما أقل منها ؟ قال : الطمع فيها ولا ينالها !

وهذا التفصيل الدقيق الذى ذكره الإمام جعفر الصادق
يدل على خبرة تامة بطبائع النفوس ، وأسرار الطبائع ، ولعلها
الحكمة التى تحدت عن لسان أحد رجال بيت النبوة الرشيدة
بعد أن خبروا من الناس ما خبروا . . . ! ومن ابتلى بصحبة
الناس يعرف صدق هذا الكلام ، وأنه نتيجة للتجربة الطويلة
والمعرفة الصادقة بأحوال النفوس واتجاهاتها .

وتأثير الطعام فى استخراج الأسرار وتغيير القلوب
طريقة متداولة ، وكثيراً ما يلجأ إليها النفعيون لاقتحام
الحصون المغلقة ، وقضاء المصالح المعقدة . ولا يحل عقدة
اللسان إلا الجلوس على الخوان ، ولا يوهى العزائم إلا العزائم ،^(١)

(١) العزائم بالتميز العامى جمع (عزومة) أى دعوة لطعام .

فقراراً أيها الأخ من هذه السبيل .
والجنيد وهو من كبار الصوفية يرى أن صحبة الفاسق
أهون من صحبة سيئ الخلق : « لأن يصحبنى فاسق حسن
الخلق أحب إلى من أن يصحبنى قارى سيئ الخلق » . وهذا
كلام لا يقوله إلا صوفي يبحث عن الحقايا والأسرار . وهو
يعلم هذا بأن جنابة فسقه على نفسه أما حسن خلقه فليعاشريه !
وقد كان كثيرون من الصوفية يرون في صحبة الأشرار
فرصة طيبة للعمل الصالح وللجهد المشكور ، فيكونون لهم
قدوة توحى إليهم الخير والصلاح . ويعلق على هذا النهج
الدكتور زكي مبارك - عليه رحمة الله - : « ولكن هذه
النظرة الحكيمة ليست من حظ جميع الصوفية ، وإنما هي
من حظ أشرافهم الذين أغنتهم نفوسهم عن كسب الشرف
المزيف الذى يجتلب باسم الغيرة على الخلق والدين :
« والرجل النافع هو الذى يفكر فى إنقاذ من زلت قدمه
ولا يشغل نفسه عن الواجب بترديد الصياح والصراخ .
« وعند هذه النقطة الدقيقة تزل أقدام كثير . . . »
ومهما يكن من أمر فصحة هذا النوع من الناس تحتاج

إلى حذر ويقظة وحسن تبصر بالعواقب . ومن حاولها وليس
كفوراً لها حمله الفاسق إلى ماخوره قبل أن يحمله المرشد
إلى محرابه !

ولهذا قال بعض العلماء : « لا تصحب إلا أحد رجلين
رجل تتعلم منه شيئاً في أمر دينك فينفعك ، أو رجل تعلمه
شيئاً في أمر دينه فيقبل منك » . والثالث وهو الذي لا يفيد
ولا يستفيد فلا خير في صحبته . وقال المأمون : « الإخوان
ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر مثله
مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت . والثالث مثله
مثل الداء لا يحتاج إليه قط » :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم

لا يستوون كما لا يستوى الشجر

هذا له ثمر حلو مذاقته

وذاك ليس له طعم ولا ثمر

قال الغزالي : « فإذا لم يجد رفيقاً يواخيه ويستفيد به
أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به » . قال أبو ذر — رضى الله
عنه — : « الوحدة خير من المجلس السوء ، والمجلس الصالح
خير من الوحدة » .

(٣)

ومن تذكره صحبتهم أيضاً الحريص على الدنيا ؛ فإنه يكون كالعاق تحمله على كاهلك ، ويمتص منك خيرك ، ولا ترى منه براً ؛ ولا تحس له نفعاً . ومع ذلك يكدر صفو العيش عليك بما يثير في نفسك من دوافع الحرص والطمع ، ومخالطة البخلاء تحرك الشح والحرص بينما نفسك مجبولة على الكرم والسماح فتقع النفس بين الأمرين فيما يكدر صفوها وينقص عيشها ، وقد كانت بالبعد عنه في سلامة . ولا يذكر الإنسان ما أنفق إلا عندما يرى من جمع . ولا يندم على ما قدم إلا عند ما يشاهد من آخر . . . والحريص في حاجة إلى بخيل مثله ليمضيا في شوط الكنز إلى النهاية ، إن كان للكنز نهاية .

والنفس بين الحيرة القاتلة من طبعها على السماح والكرم ، وطبع صاحبها من اللؤم والشح إما أن تظل في ضيقها بصحبته وهي تقاوم وتجادل دوافع الحرص لتمضي على سننها ، وفي هذا من المشقة ما فيه ، وإما أن تنساق في تيار صاحبها وتهدى بدائه ، وتتشبه بطريقته فتتحول عن النهج السليم وتنحرف عن الطريق المستقيم .

ومعاشرة الحريص تحرك الحرص ، ومجالسة الكرام
تعلم الكرم ، ومصاحبة الشجعان تخلق الشجاعة ، ومخالطة
الزهاد تزهد في الدنيا ، ومزاحمة العلماء تفتق الذهن . وأوصى
لقمان ابنه فقال له :

« يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن القلوب
لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر » .

حقوق الإخوان

رأينا في بدء الحديث كيف يعتبر الصوفية الأخوة عملا من الأعمال التي تترتب عليها النتائج والأسباب . فهي كالولادة التي يترتب عليها قبل الوالد وتجاه الولد واجبات وحقوق . ولكن الغزالي — رضى الله عنه — لا ينظر إلى الأخوة والمودة هذه النظرة ، وإنما يعللها بتعليل آخر ، فهو يعتبرها رابطة بين شخصين ، لا كما يرتبط الابن بأبيه ، وإنما كما يرتبط الزوج بزوج . وإذا كان الزواج يرتبط بين الزوجين برباط وثيق ، فكذلك عقد الأخوة فإنه يرتبط بين الأخوين بمثل هذا الميثاق .

ونظرة الصوفي قد تكون أدق وأعمق ، بينما نظرة الغزالي قد تكون أوضح وأبين ، لأن الزواج ما هو إلا تآلف بين شخصين من جنسين مختلفين هما الذكورة والأنوثة ، وارتباطهما بهذا التآلف على التعاون والنهوض بمشاق الحياة والمشاركة في مباحج الدنيا . وكذلك الأخوة ما هي إلا تآلف بين شخصين من جنس واحد ثم ارتباطهما برباط الله علي

التعاون والتناصر والتناصح والإخلاص والبذل والتضحية حتى يصير الأخوان كاليدين تشد إحداهما الأخرى .
وسواء آمتنا بنظرة الصوفي من تعليل رابطة الأخوة بأنها كالولادة ، أو بنظرة الغزالي من تعليله لها بأنها كرابطة الزوجية ، فإننا لا نختلف في أن للولادة حقوقا وواجبات مقررة على الوالد وعلى المولود . وأن للزواج حقوقا وتبعات مقررة على الزوج وعلى الزوجة . وكذلك الأخوة ، فلها حقوق وتبعات وواجبات والتزامات تفرضها الشريعة والأخلاق وآداب السلوك والتعامل على كل من الأخوين .
فالأخيك عليك حق في المال بالبذل والعون والإحسان والمساعدة . وله عليك حق في النفس بالإيثار والتضحية والفداء والدفاع عنه ، وله عليك حق في اللسان بالحمد والذكر الطيب والنصيحة ، وحق في القلب بالعفو والرضا وحسن الظن والإخلاص له والوفاء ، وبترك التكلف معه وترك التكليف له .

المشاركة في المال

(١)

فأول واجب على الأخ لأخيه هو أن يتذكر أن لافائدة من الأخوة إن لم تكن سلاحا نواجه به صعاب الحياة ، ونقف أمامها متساندين متعاضدين . وكثيراً ما يفاجأ المرء بأزمات ، وتعثره عقبات لم يكن لها في تقديره حساب . . . فعلى أخيه أن يقول له : هاأنا . . ! وليتقدم — بغير سؤال إلى بذل المساعدة وتقديم العون ، والتطوع بالخدمة لمعاونة صديقه . والرسول — صلى الله عليه وسلم — يقول : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » . ويقول : « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

ولا يقتصر العون الأخوي على تقديم دربهات لا تغنى ولا تنفع ، بل على المرء أن يحس صادقاً بأن أخاه شريكه في

ماله ، وقسيمه فيما معه . وقد قسم العلماء مشاركة الأخ لأخيه في المال إلى مراتب :

أدناها أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم له بحاجته من فضلة مالك دون أن تحوجه إلى سؤالك أو الطلب منك فإن أحوجته إلى السؤال فليست له بأخ .

والمرتبة الثانية أن تنزله منزلة نفسك ، وترضى بمشاركته إياك في مالك حتى تسمح بمشاطرته في المال . وما ورد في ذلك من المثل الطيب ما قاله الحسن : « كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه ! » ،

والمرتبة الثالثة وهي العليا مرتبة الإيثار بالنفس ، وبذل الروح في سبيل الأخ . وهذه رتبة الصديقين ، ومنتهى درجة المتحابين . وما ورد في ذلك . أنه سعى بجماعة من الصوفية عند بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم . وكان من بينهم أبو الحسن النووي فبادر إلى السيف ليكون هو أول مقتول ، فقتل له في ذلك قتال :

أحببت أن أوثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة . وكان هذا التصرف النبيل سبباً في نجاتهم جميعاً . ولماذا نذهب بعيداً

ونحن كلما ضربت لنا الأمثال من الماضي ابتسمنا وقلنا : ذلك عهد مضى وانقضى ، وتلك أمة قد خلت ، وأين نحن منهم ؟ فتعالوا إلى مثل قريب سمعته بأذني من أحد إخوان الإسكندرية وقد مروا علينا ونحن في المنصورة وهم في طريق عودتهم من القنال بعد أن قاموا بالاشتراك في حرب العصابات ضد القوات البريطانية . وقد أخذ فريق من إخوان المنصورة يبذلون جهدهم لملهم على الكلام ، وبعد جهد جهيد ، وإقناع من أخ كبير ، أخذوا يقصون علينا آخر حادثة قاموا بها ، وهي حادثة نسف القطار الحربي الذي ختمت به الحوادث بعد أن تغير الجو السياسي في القاهرة بمجيء حافظ عفيفي رئيساً لديوان فاروق .

فوصف الأخ كيف اجتمعوا واتفقوا على تنفيذ الخطة نهاراً جهاراً لأن القوات البريطانية كانت لا تسمح لقطاراتها بالسير ليلاً وكانت الخطة تقوم على أن يتولى واحد منهم تفجير الألغام بنفسه وإشعال الفتيل بها عندما يقترب القطار من اللغم معرضاً بذلك نفسه لشظايا اللغم ، ولرصاص حراس القطار . وكانت المهمة فيما بينهم شاقة لاختيار الأخ

الذى يقوم بهذا العمل . فقد كان كل واحد منهم يصر على القيام به والتقدم إلى الاستشهاد حريصاً على الموت دون إخوانه ، ولما اشتدت الرغبة بهم وكل فرد منهم يريد أن يكون صاحب المهمة لجئوا إلى إجراء القرعة لانتخاب من يقوم بتفجير اللغم . . . وتقدم من وقعت عليه القرعة سعيداً فرحاً . وكان من أثر هذا الإخلاص أن رعتهم عناية الله جميعاً ، فتام من عهد إليه بتنفيذ المهمة ، وأمكن أن يقلت من شظايا الانفجار ورصاص الأعداء ، وظلت عناية الرحمن معه تحرسه حتى بلغ مأمنه ، ولو نظر أحدهم تحت قدمه لوقع في أيديهم : « والخير في أمتي إلى يوم القيامة » .

ويقول الفزالي — رضى الله عنه — : « فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن ، وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين . فقد قال ميمون بن مهران : من رضى من الإخوان بترك الأفضال فليواخ أهل القبور » .

(٢)

ويرى أبو حازم أن الأخوة في الله يجب ألا تمتزج بأخوة

الدنيا . فيقول : « إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنيائك » . ويعاقب الغزالي على قول أبي حازم تعليقاً يخرج به عن معناه . والحق أن وجهة أبي حازم وجهة جديدة بالانتباه إليها والتأمل الطويل فيها .

فليس من الكرامة أن يستغل الشخص المؤمن أخاه في حاجة الدنيا باسم الإخاء ، وأن يسخره لتحقيق أغراضه ومآربه . . . ومن الخير أن نضع حداً بين العلاقة الأخوية المجردة القائمة على الحب والإخلاص ، وبين العلاقة المادية التي تقتضى المعاملة . ويعجبني ما قاله عالم شاب : « تحابوا كإخوة وتعاملوا كأجانب » . إلا أن هذا القول ليس على إطلاقه ، فالواجب أن يكون بين الإخوة سماح وتضحية لا تصل إلى حد الاستغلال والتسخير . وإذا نظرنا إلى خلط المعاملة بالموادة نجد أنها كثيراً ما توهم أواصر المودات ، وتخلق العداوات . كما أن الشح القاتل في المعاملة ينفر الناس ، ويفرخ الكراهة والبغضاء . وهذا السماح هو ما عناه على بن الحسين — رضى الله عنه — حين قال لرجل : هل يدخل

أحدهم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه .
فقال الرجل : لا . . . قال : فلستم بإخوان .

وللصوفية في هذا المجال مذاهب أقرب ما تكون إلى
الشيوعية أو الاشتراكية المطلقة حتى إن أحدهم كان لا يصحب
من قال : نعل . . لأنه أضافه إلى نفسه فهم يرون أن المال
مشترك بين الإخوان ، وأن الشيا ب أداة للاستعمال العام ،
من حق جميع الإخوان أن يستعملوها ، حتى الشغل لا يصح
أن تكون لك خاصة ، دون بقية الإخوان .

وفي ذلك يقول أحدهم — سليمان الداراني — : لو أن
الدنيا كلها لي فحملتها في فم أخ من إخواني لاستقلتها له ، وهو
القائل أيضاً : إني لألقم أخى اللقمة فأجد طعمها في حلقى .
وهذا والله كلام جميل ومعنى جميل . ولا يشعر بهذا إلا الأب
حين يجلس إلى أولاده فيسقيهم العذب من الشراب فيسكر هو
من غير شراب . ولا يشعر به إلا الكريم الذي تذوق لذة
دعوة الإخوان إلى موائد الضعام . والكريم إذا رأى إخوانه
يعملون أيديهم في مائدته انتشى وانبسط وأما البخيل فكما
رأى المائدة تتداعى اهتم وانقبض .

فالصوفية يرون أن الأخوة تستدعى انفصام الحواجز ونسيان الحدود . جاء فتح الموصل إلى منزل لأخ له كان غائباً فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه ، وأخذ حاجته . ثم أخبرت الجارية مولاهما بما حدث . فقال لها : إن صدقت فأنت حرة لوجه الله ، سروراً بما فعلت . وقال أبو سليمان : كان لي أخ بالعراق ، فكنت أجيئه في النوائب فأقول : أعطني من مالك شيئاً . فكان يلقي إلي كيسه فأخذ منه ما أريد فجئته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شيء . فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبي . ويقول آخر : إذا طلبت من أخيك مالا . فقال ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإخاء ،

(٣)

والحق أن إلغاء الفواصل والحدود منهج لا يقوى عليه إلا الأصفياء . وفرق ما بين الصوفية وأهل السنة أن أهل السنة لا يقرون إلغاء الحدود والرسوم التي وضعت للتعامل العام مع وجود السماح والفضل . وألسنا نرى أخوة النسب ترتبط بالحب والوفاء ومع ذلك فحدود المعاملة والمبادلة قائمة وجارية حسب ما تعود الناس . وفي قيام هذه الحدود أمان

من طغيان بعض النفوس . وشريعة الإسلام قائمة على احترام الحدود والأصول ، ولا تقر التنجى عن هذه المبادئ .
ومن هذه الأصول أن تقوم المعاملة بين الإخوان على التدوين والتسجيل . وقد قال القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، الآية . ولا تمنع الصداقة كتابة مثل هذه الديون ، فإن فجاءت الزمان ليس لها حسابان .

وعلى الأخ المقرض أن يبادر هو بالتدوين والتوقيع وتقديم السجل (الإيصال) إلى أخيه ، فيحقق بذلك السنة ، ويجرى على الحدود ، ويكون في هذا التصرف الدقيق مانع من الظن فلا يقتحم قلب صاحبه ... وعلى الأخ المقرض أن يقبل التسجيل في ذلك نظام وأمان وتلك حكمة القرآن وليكن هذا المبدأ هو طريقة المعاملة بين المرء وزوجه ، فإذا اقترض منها فليسجل لها قبل أن تسأله ، وإذا ابتاع لها فليشهد أنها صاحبتة ، ولا يتوانى حتى تطلب إليه ذلك ، فتولد في نفسه غضاظة . وغنى عن البيان أن على الزوجة أن تعامل زوجها بمثل هذا النهج الإسلامى الحكيم فتسجل له ما تأخذه لنفسها أو لذويها .

ومع هذا كله فليكن هناك دائما عامل التسامح . التسامح .
التسامح حتى لا تتحول النفوس إلى آلات حاسبة تحصى النقيير
والقطمير . وإنه من انعدام الذوق أن نشاهد بعض الأسر
يتحاسب أفرادها على التافه والحقير . وكأن الأخوة
قد صارت إدارة عامة تطالب ببيان دقيق عن إنفاق القليل
والكثير ، والصغير والكبير .

يجب أن تكون هناك حدود ، ولكنها حدود لا سدود .
يجب أن تكون هناك قواعد ولكنها قواعد لا قيود .

وإذا عدنا إلى الحكمة : « تحابوا كإخوة وتعاملوا
كأجانب ، نجدها وسيلة لجفاف المودة بين الإخوان ،
وللتبجح والقحة بين الأحباء . ولكن واجبنا أن نقول :
« تحابوا كإخوة وتعاملوا في سماح ، والإسلام يأمرنا بالسماح
دائما : « رحم الله عبدا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا
إذا قضى ، سمحا إذا اقتضى » . فالسماح بين الإخوة أشد
والزم .

وليس من السماح والكرم أن تترك أخاك محتاجا وأنت

ذو غنى . وليس من الشهامة أن تحس بضائقته ولا تفرجها ،
وليس من المروءة أن تنتظر عليه حتى يذيب حباءه خجلا
في مديده إليك ، وليس من الأخوة أن يكون مريضا
ولا تكن له بمالك وأسبابك كلها .
وفي هذا المجال يجب أن نتعامل !

المعاونة بالنفس

فتكون له بنفسك كما تكون له بمالك في قضاء حاجاته وتسخر له بعض جهدك ووقتك ، وتبذل في ذلك راحتك . وللمعاونة بالنفس درجات ، وأدناها القيام بحاجة الأخ عند السؤال ومع القدرة مظهراً البشاشة والفرح بالقيام بخدمته ، وتكليفه لك . وقد قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي ، فإن لم يقضها فكبر عليه واقرأ هذه الآية : « والموتى يبعثهم الله » .

وليكن قيامك بحاجة إخوانك احتساباً لوجه الله ، ووفاء بحقوق الإخاء ، وقياماً بالواجب لا انتظاراً لشكر ، أو أملاً في رد المعروف . قضى ابن شبرمة حاجة كبيرة لبعض إخوانه فجاءه بهدية . فقال : ما هذا ؟ قال : لما أسديته إلي . فقال : « خذ مالك عافاك الله » . إذا سألت أخاك حاجة

فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضاً للصلاة ، وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموقى ، .

بل إن الصفوة من القوم يرون أن القيام بحاجة الناس سواء أكانوا إخواناً أو أعداء مما تستلزمه الحكمة وقوة الشخصية ، ومن هؤلاء جعفر بن محمد : « إني لأسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردم فيستغنوا عني ، . وفي هذا التصرف الحكيم تثبيت لمكانة المرء ومنزلته بين الجماعة ، وإشعار لها بالعزة والكرامة والسيادة .

وكان الرجل من السلف الصالح يتردد على باب أخيه ويسأل : هل لكم زيت ؟ هل عندكم ملح ؟ هل لكم حاجة ؟ ثم يقوم بقضائها من غير أن يعلم أخوه بما فعل .

وإذا كان الإخوان هم عدة الزمن وسلاح الأيام فإذا لم ينفعوا فلا خير فيهم ، ولا فائدة منهم . وإنما يرجى الفتى كما يضر وينفع ، ويقول ميمون بن مهران : « من لم تنتفع بصداقته ، لم تضرك عداوته ، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ألا وإن لله أواني في أرضه وهى القلوب ، فأحب الأواني

إلى الله أصفأها وأصلبها وأرقها : أصفأها من الذنوب ،
وأصلبها في الدين ، وأرقها على الإخوان .

(٢)

ويجب على الأخ أن يتذكر أن حاجة أخيه لا تقل
في الأهمية عن حاجته . ومن نبل الإخاء أن تقوم بحاجته دون
أن ينتظر منك ذلك ، ودون أن يدري أنك قمت بها .
ثم لا ترى لنفسك حقاً عليه بسبب ما قدمته ، ولا تسمح
لنفسك بأن تعد ذلك من أفضالك عليه ، بل يجب أن تشعر
بحقه عليك لقبوله سعيك وقيامك بأمره . ويقول الغزالي :
« ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد
في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار ، والتقديم على
الأقارب والولد . ولا تحسبن أن تقديم مصالح الإخوان على
مصالح النفس والأقارب والولد جد غريب ، بل إننا لنشاهد
في هذه الأيام التي انصرف الناس فيها إلى ما يعينهم فحسب
بعض الكرام يشغلون أنفسهم بالقيام بحقوق المعارف
والإخوان ، وينسون مشاغلهم الخاصة .

ولقد فضل بعض الأتقياء والصالحين الإخوان على

الأبناء تفضيلاً حقيقياً ، وعللوا هذا التفضيل بأن الأبناء يربطوننا إلى الدنيا ، ويعودوننا على الحرص والجبن ، وفي الحديث : « الولد مجبنة مبخلة » . بينما الإخوان يذكروننا بالآخرة ويعودوننا على البذل والإيثار والتضحية ، ويربطوننا إلى المعاني الكريمة والمحامد الأصيلة .

ومن حق الأخ أن تسأل عنه إذا غاب ، وأن تتفقده إذا تمهل . وقد قال عطاء : « تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث ، فإن كانوا مرضى فعودوهم ، أو مشاغلي فاعينوهم ، أو كانوا نسوا فذكروهم » . وما أظن عطاء — رضى الله عنه — قصد تحديد الزمن تحديداً تاماً في جميع الظروف والأوقات . بل إن هذا الزمن قد يقصر كثيراً إذا كان الأخ جاراً أو زميلاً ، وقد يطول عندما تفرق بين الأخوين عوامل الزمان والمكان . وروى أن ابن عمر كان بين يدي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجعل يلتفت يميناً وشمالاً فسأله عن ذلك ، فقل : أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه . فقال له : إذا أحببت رجلاً فسله عن اسمه ، واسم أبيه ، وعن منزله . فإن كان مريضاً عدته ، وإن كان مشغولاً أعنته .

وهذا هو سر التعارف المشروع في دعوتنا عند التلاقي .
فعلى الإخوة أن يسأل كل منهم أخاه — عند الجهل — عن
اسمه واسم أبيه وعن محل إقامته . . وفي هذا الحديث سر
الاجتماع الأسبوعي الدوري الذي نتناوبه في منزل كل
فرد من أفراد الأسرة ، لتقوم المجموعة بمعرفة منازل الأفراد
فيتم التعرف بالعضو وبالبيئة ، وبالإنسان والمكان ، حتى
تكون الجماعة للفرد بمنزلة العشيرة عندما تدعو إلى
ذلك الضرورة .

وقد رأيتنا ونحن بين إخوان المنصورة الحبيبة على
أيامها وإخواننا بها السلام ، وقد أملت بأخ لنا نازلة من
المرض ، كيف اجتمع الإخوان وأرسلوا من يزوره
في مستشفى البعيد نيابة عنهم ، وكيف اكتبوا فيما بينهم
على مد يد المساعدة إليه ، وكيف تلاقوا مع أسرته فواسوها
وهونوا الأمر عليها ، وكأنه لم يغيب عنها ، ورأى والده
الشيخ فيهم صورة ابنه الغائب .

(٣)

والبيوت يا أخى مواضع للفتنة وللاختبار ، ولكن
إذا خلصت النيات وحسن التهذيب بالتزام الإخوان تعاليم

القرآن واجتنابها في غيبة أربابها ، ومن غض الطرف عند دخولها ، ومن عدم التردد عليها إلا لداع يدعو إليها : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلبوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم : ارجعوا ، فارجعوا . هو أذكى لكم ، والله بما تعملون عليم قل للؤمنين يغضوا من أبصارهم »

ولا يقتصر غض البصر على التطلع إلى عورات النساء ، بل يدخل في ذلك التطلع إلى العيوب . وكثير من الناس يدخل البيت ولا هم له إلا مراقبة ما به ، والحكم على ما فيه ، وتقويم أثاثه ، والتفتيش عن عيوبه . كأنه موكل بصلاح الخلق ، وتقدير قيم الناس . وقد لا يكتفى بذلك بل يتناول بلسانه فيقترح وضع كذا في غير موضعه ، أو شراء كذا لأنه أفضل ، أو التخلص من كذا لأن ما عنده خير منه ، وفي ذلك جرح لأحاسيس الإخوان مهما بلغت المودة ومقياس المعاملة في هذا الميدان ألا نلغى بيننا — نحن الإخوة — الحدود أو الرسوم ، بل نلتزمها ، ولا يسوِّغ لنا

الود أن ندخل البيوت في غيبة إخواننا ، ولا نسلك مع
أهلهم غير سبيل الدين وبالع الحشمة ، حتى ولورفعوا هم
فيما بيننا الكلفة .

وإذا ما التزمت هذه الآداب أصبحت منازل الإخوان
محاريب تذيب الذنوب ، وملائكة الرحمن تطوف من حولها :
« ما زار رجل أخاه في الله شوقاً إلى لقائه إلا ناداه ملك من
خلفه : طبت وطابت لك الجنة » .

ومن تمام الأخوة ألا تخص نفسك بشيء سار دون
أخيك ، كما لا تختص به دون ولدك . فلا بد من دعوته
في المأدبة ، والتماسه في الوليمة ، وتفقدده في العرس ، وتستشعر
حسبك أن المسرة لا تتم إلا بحضوره . وأن الأنس
لا يكتمل إلا بوجوده ، وقد لخص القرآن الحكيم علاقة
الأخوة في كلمة موجزة : « رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً
يبتهغون فضلاً من الله ورضواناً » .

واجب اللسان

والواجب الثالث للأخ هو حقه على لسانك . وقد أصبحت الأخوة في الأيام الحاضرة وقد توافرت للإنسانية كثير من وسائل الأمن والضمان ، والدعة والاستكفاء ، تكاد تكون مقصورة على علاقة القلوب التي يترجم عنها البيان ، ويقوم بها اللسان . ولهذا كان الحديث عن هذا الواجب ذا شعب ومسالك شتى . وحسبك أن تعلم أن للأخ عليك في لسانك حقين ، أحدهما سلبي . والآخر إيجابي :

١ - فالسلبي يكون بالصمت عن القدح في أحبابه وأهله وولده ، وبالسكوت عن حكاية أقوال الناس فيه ! . فإن الذي سبك مبلغك . وما يصيب المرء من جراء الذم الذي يقدمه الناس له غير ثورة الأعصاب فإذا كان بينه وبينه حجاب لم يتعرض لنتيجته ، حتى إذا بلغ إليه وقع المحذور . وبالجملة فليسكت الصديق عن كل كلام يكرهه أخوه جملة أو تفصيلا ، تعريضا أو تصريحاً ، إلا إذا دعا إلى ذلك داع

دينى من نصيحة أو أمر بمعروف أو نهى عن المنكر ولم يجد رخصة فى السكوت ، فحينئذ يصبح من حقه أن تتكلم لتدعوه إلى الخير ، فإن ذلك إحسان إليه . وذكر مساوى الصديق لا يخرج عن الغيبة وقد حرمت فى حق كل مسلم ، فهى فى حق إخوانك جريمة دينية وخلقية . ويزجرك عنها أن تطالع أحوال نفسك وعليها تقيس النفوس الأخرى .

واعلم أنك لو طلبت منزها عن العيوب لاعتزلت الناس كافة ، وما من أحد إلا وله محاسنه ومساويه . والكريم هو الذى يلتمس المعاذير . قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العثرات . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « استعينوا بالله من جار السوء الذى إن رأى خيرا ستره ، وإن رأى شرا أظهره » .

ويرى الصوفية أن الفتوة ليست فى قوة السواعد والعدوان بها على الإنداد ، وإنما هى كما قال الفضيل : « الفتوة العفو عن زلات الإخوان ، ويفصل الشافعى رضى الله عنه طبائع النفوس : « ما من أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ، ولا أحد يعصى الله ولا يطيعه ، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل » .

ومن حق الصديق السكوت عن أحواله ، فلا يسأله إذا
رآه في طريق أو في موضع ما — ولم يفتحه بذكر غرضه
من مصدره أو مورده — فقد لا يحب أن يعلم أحد شيئاً عما
هو في سبيله فيثقل على نفسه الصدق ، فإن لم يصدق اضطر
إلى الكذب . وفي الحالتين تكون قد حملته على مركب
صعب لا يهواه . وإذا لجأ إلى عدم الرد مطلقاً ثقل على
نفسك منه وربما بدالك أن هذا لون من عدم الوفاء !

٢ -- وكما يجب عليك السكوت بلسانك يجب الصمت
بقلبك وذلك بترك إساءة الظن . وسوء الظن غيبة صامتة وإن
شئت فقل غيبة قلبية . والنفس المؤمنة تفسر ما تراه التفسير
الجميل ، أما غيرها فلا ترى في الفعل الجميل إلا كل قبح .
فواجبك أيها الأخ المسلم أن لا تحمل فعل أخيك على وجه
فاسد ما أمكنك حمله على وجه حسن . وعليك أن تحمل
ما تراه من خطأ على السهو أو النسيان أو الجهل . وقد قال
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إياكم والظن ، فإن
الظن أكذب الحديث » . ولا يقف سوء الظن عند مداه ،
بل يدعو إلى التجسس وإلى التحسس ، وكلاهما مما نهى عنه

الشرع : « لا تحسبوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا
وكونوا عباد الله إخواناً » :

فستر العيوب والتجاهل والتغافل والتمل على الوجه الحسن
شيمة أهل الفهم والبصر . ويكفيك أن الله سبحانه وتعالى
وله عليك حق الولاية المطلقة والقدرة المسيطرة ، وله حق
العبودية الذليلة ، يعاملك هذه المعاملة ، ويستر عن الأنظار
ما أخفت الأظار . والصوفية لا يدعون الله إلا بقولهم :
« يا من أظهر الجميل . . وستر القبيح » . فتعال معي أيها الأخ
نبسط أيدينا معهم ونقل في ضراعة : « يا من أظهر الجميل .
وستر القبيح » ثم نعامل سوانا بهذا المبدأ رجاء أن يهبه الله
لنا ، وقد حققناه لغيرنا . إنه ستار العيوب ، وغفار الذنوب
وما أعجبت بشيء في والدي — رحمه الله — إلا بصمته
عن عيوب الناس وستره على العصاة . ولقد سرى في نفسي
بعض هذه الصفة حتى إنني رأيت مرة إحدى السيدات تسرق
بيتنا فتغافلت عنها ، حتى أدع لها فرصة للفرار ، دون أن
أعرضها لمذلة الخطيئة . وما أعجب ما يخاطب به سيدنا عيسى
(عليه السلام) حواريه حين يقول لهم : « كيف تصنعون

إذا رأيتم أحاكم نائماً ، وقد كشف الريح ثوبه عنه . قالوا :
نستره ونغطيه . قال : بل تكشفون عورته .

قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ ! فقال : . حدكم يسمع
بالكلمة في حق أخيه فيزيد عليها ، ويشيعها بأعظم منها .
وبهذا تصير الحبة قبة ، والبصرة بعيراً . وقلما تجد رجلاً
يحسن نقل ما يرى بدقة وأمانة ، والصحافة تقوم على استغلال
نظرية الحبة خير استغلال . واللبيب من نفي الزوائد ، وقنع
بالحقائق . والويل للمطففين . . .

ومنشأ التقصير في ستر العورة ، والرغبة في كشفها
الداء الدفين في الباطن وهو الحقد والحسد . فإن الحقوق
الحسود يمتلئ قلبه بالضغن والغیظ ثم يظل مستوراً فيه إلى
أن يجد متنفساً له فينفث سمومه وعقاربه . وواجب الأخ
أن تكون عيونه رمداً لا تبصر عيوب إخوانه .

٣ — ومن أدب الإخوان الصمت عن أسرار الأخ التي
استودعك . ويجب إنكارها إذا سئل عنها حتى ولو صار
بذلك إلى الكذب ، وليس الصدق واجباً في كل الأحوال .
وكما أن المرء يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج

فى ذلك إلى الكذب ، فليفعل ذلك من أجل إخوانه فإن
أخاه منزل منزلة نفسه ، وقد سئل بعضهم : كيف تحفظ
السر ؟ قال : « أجحد المخبر وأحلف للمستخبر » .
وقد حجب للطبيعة البشرية أن تفضى بمكنون أسرارها
إلى أصدقائها وخلصائها :

لعب الهوى بمعالى ورسوى
ودفنت حيا تحت ردم هموى
وشكوت همى حين ضنقت ومن شكا
هما يضيق به فقير ملوم
بل إن الحكماء يرون فى حجب الأسرار عن الأصدقاء
عقوباً : « مكاتمة الأدين صريح العقوق » .
ولا بد من شكوى إلى ذى حفيظة
إذا جعلت أسرار نفس تطلع
وعندما تضيق النفس بالهم والأحزان تجد سلواها فى
بث أشجانها إلى من يواسيها . .
شكوت وما الشكوى لمثل عادة
ولكن تفيض النفس عند امتلائها (١)

ولمجالس الأخوة قدرة عجيبة على حل عقد الأسرار .
وكم من حذر ظل يطوى سره بين جنباته طويلا ، حتى إذا
صفا المجلس تحطمت القيود وبدأت الخفايا ، ومن حق هذه
المجالس أن تطوى على ما جرى فيها ، وقد جعل الدين مجالس
الإخوان أمانة : « إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل
لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره » . فحذار أيها الأخ
من الخيانة !

وقد كان السابقون مثلاً في حفظ السر ، وقد قيل لبعض
الأدباء : « كيف حفظك للسر ؟ » قال : أنا قبره ، وقيل :
صدور الأحرار قبور الأسرار . وجعل إفشاء السر عنوان
الحق : « إن قلب الأحمق في فيه ، ولسان العاقل في قلبه ،
وما السر في صدرى كشوا بقبره

لأنى أرى المقبور ينتظر اللشرا
ولكننى أنساه حتى كأنى

بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بينى وبينه

عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

وكانوا يعرفون قوة الخلق من قدرة الرجل على تحكمه في أعصابه عند الغضب فلا يبوح أسر . يقول أبو سعيد الثوري : إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك ، وعن أسرارك : فإن قال خيراً ، وكنتم سرك فاصحبه . وقيل لأبي يزيد : من نصحب من الناس ؟ قال من يعلم منك ما يعلم الله ثم يستر عليك ما يستره الله ، وهذه المقاييس مقاييس خلقية دقيقة . فالكريم لا يخرج الغضب عن طبعه ، أما اللئيم فسرعان ما يبادر بإظهار ما يعلم عند القطيعة :

وترى الكريم إذا ما تصرم وصله
يخفي القبيح ويظهر الإحسانا

وترى اللئيم إذا تقضى وصله
يخفي الجميل ويظهر البهتانا

وإنك لتجلس إلى محدثك فإذا بك تستشف من حديثه
قوة خلقه ، أو ضعف إيمانه ، فإن اللسان ينم عن طبع صاحبه
وكم من مهاجم لإخوانه الغائبين ، وهو لا يدري أنه يهاجم
نفسه عند السامعين .

٤ - ومن أسوأ ما يفسد الصحة الجدل والمهارة . وقد أصبح الجدل نهج هذا العصر باسم حرية الرأي ودعوى النقاش للوصول إلى الحقيقة . والحق أن للأخ أن يناقش أخاه الرأي في رقة لا تصل إلى المدافعة ، وفي أدب لا يصل إلى العناد . ولكن أين من يفعل ذلك ؟ أين من يناقش وهمه الوصول إلى حقيقة ؟ إن كل من يناقش آخر يضع في رأسه الأساس الذي سيصل إليه من النقاش ، وهو الانتصار لرأيه أو لعقيدته أو لمذهبه السياسي أو لفكرته المعينة . وهو في سبيل ذلك يرتكب شططا من القول ، وتعسفا في الحقيقة ليكسب الغلب والانتصار .

أما أدب الإسلام فهو ترك المهارة سواء أ كنت محقاً أو مبطلاً . وحتى ولو كان الحوار يدور حول العقيدة . وقد رأيت من تجاربي أننا لا نكسب القلوب بالحجج بقدر ما نكسبها بالقدوة واللطف وقوة التأثير . ولهذا حدثوا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : « من ترك المراء وهو مبطل بُنى له بيت في ربض الجنة . ومن ترك المراء وهو محق بُنى له بيت في أعلا الجنة » . ويلاحظ من الحديث

أن ثواب من يترك المراء وهو محق أعلى وأعظم ، لأن تركه وهو محق أثقل على النفس وأشق . ولعل في الحديث من المعاني فوق ذلك . فقد طلب الرسول ترك المراء في الحالتين ، حتى ينزع من النفوس الوهم الخاطيء . حين تمارى وتتجادل باسم الدفاع عن الحق . وما يمارى أحد أخاه ، إلا وكل منهما يعتقد أنه المحق !

ويقول زكي مبارك في كتابه التصوف الإسلامى :
« وأكاد أحكم أن حملة الأقلام في عصرنا هذا قل أن يبقى لهم صديق ، فباسم حرية الرأى ، وحرية النقد ، وحرية النشر ، وحرية القول تقع كلمات وعبارات تأتى على المودة من الأساس ... وقد يقال إن أناساً تصاولوا في ميادين الأدب والسياسة ثم ظلوا أصدقاء وهذا صحيح ، ولكن من يضمن سلامة القلوب من الندوب التى يورثها الجدل العنيف . هؤلاء لم يظلوا أصدقاء على ما كانوا فى سالف العهد ، ولكنهم يتجملون فيخفون العيب ويظهرون الوداد ، ^(١) .

وفى كتاب الإصابة : دخل السائب بن صيفى على النبى

(١) التصوف الإسلامى ص ٢٢٣ > ٢٠ .

صلى الله عليه وسلم فقال : أتعرفنى يا رسول الله ؟ قال : وكيف
لا أعرف شريكى فى الجاهلية الذى كان لا يُشارى ولا يمارى ؟
وقال ابن المقفع : المشاركة والمهارة يُفسدان الصداقة القديمة ،
ويُحِلّان العقدة الوثيقة ؛ وأيسر ما فيهما أنهما دربة على
المنافسة والمغالبة :

فإياك إياك المِراء فإنه

إلى السب دَعَاءٌ وللصرم جالب

وقال ابن أبى ليلى : لا تمار أخاك ، فإما أن تغضبه
وإما أن تكذبه . . وإذا بحثنا عن الدواعى التى تدعو الناس
إلى الجدال والمهارة لوجدناه نوعا من حب الاستعلاء وإظهار
التميُّز بمزيد العقل والفهم والتبصر ، وإظهار الخصم بمظهر
الجهل وفساد الرأى . ولهذا انتهى السلف فى الحذر من المهارة
إلى حد لم يروا السؤال أصلا . ومن أعجب ما قالوا فى ذلك :
إذا قال لك صاحبك : هيا . فقلت : إلى أين ؟ فاست بصديق .
وقالوا : ينبغى لك أن تقوم معه ولا تسأله إلى أين . . .
وهذا والله هى موافقة الإخوان !

هـ - وحق الإخوان على لسانك إيجاباً .

التودد إليهم بعذب الكلام وطيب القول .

فتظهر له مشاركته في السرور ، والتوجع في المصيبة ،
وأن تعبر له عن مكنون حبك بالبيان ولا تقتصر على ما يطويه
الجنان . فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا أحب أحدكم
أخاه فليخبره » . وإنما أمره بالإخبار لأن ذلك يتولد عنه
زيادة الحب ، إذ كلما عرف أنك تحبه أحبك فيقوى حبك
بحبه لك ، وهكذا تنمو المودة .

وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه في غيبته وحضوره .
وقد قال عمر رضى الله عنه : ثلاث يصفين لك ود صاحبك :
أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه
بأحب أسمائه إليه .

وبما يجب عليك أيضاً نحو أخيك تفقدك له بالسؤال
عنه ، وإظهار شغل القلب بسبب غيابه ، وإظهار الحزن
باستبطاء العافية عنه ، وإظهار الضيق بكل ما يعرض له مما
يؤلم ، وإظهار السرور بكل ما يناله من خير .

ومن ذلك أيضاً أن تثني عليه بما هو أهله ، وبما تعرف

عنه من محاسن أحواله . والطبيعة البشرية مجبولة على حب
الثناء . وعليك بالثناء على أولاده وأهله وصنعتة وفعله
وخلاقه وهيئته ومظهره وجميع ما يفرح به من ذلك - عند
من يُعجب بالثناء - ومن غير كذب أو إفراط ، ولكن
تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه . وعين الرضا ترى المحاسن ،
وتفرض عن المساوى* .

« إن الثناء على الأعمال الصغرى يحرك في المرء الرغبة
في القيام بأحسن ما يستطيع عن طيب خاطر ، ورضا
في الناس ، .

ولكن ما هي الأمور التي يجب أن نمتدحها في الناس ؟
علينا أن نمتدح أى شيء يقع تحت ملاحظتنا فإذا نجح
رفيق لك في أن يعقد رباط عنقه عقدة ناعمة دقيقة
- وهو لعمري عمل من الصعوبة بمكان - فقل له : إنه
أجاد عقدها ...

« قد تقول : إنه من الصعب أن تجد في الناس أمورا
تستحق المدح ، وأنا أقول : إنك أعمى ، أو إنك إنسان غبي
مفتون بنفسه ! ، ، ، .

• وللثناء أهميته العظمى إذا صدر عن الرئيس أو عن إنسان شديد القرابة .

ولكن العجيب أن هؤلاء الناس ، هم أشد الناس إهمالا له وتغاضياً عنه . . . ، إن من السهل على المرء أن يذم وأن يقذح ولكن القوة والفعالية هي في أن يتغاضى وأن يتسامح وأن يمدح^(١) . .

ومثل ثنائك عليه أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح والموافقة . فإن إخفاء ذلك حسد وعداوة^(٢) .

٦ — ويجب أن تشكره على صنيعه في حقك ، ولو على نية المعروف الذي هم بفعله ولم يتم . قال على رضى الله عنه : « من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنعة » . ومن لم يشكر الناس لم يحسن شكر الله . ويفهم كثير من الأغبياء أن الأخوة تستلزم تداعى المعانى الخلقية فلا ينهض لشكر أخيه ، كما لا ينهض الوالد لشكر ابته ، لأن كلا منهما يرى ذلك من حقه . وليس هذا من نبل الشيم ،

(١) ص ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ من كتاب فن معاملة الناس .

(٢) الإحياء ص ١٤٥ ج ٢ .

بل على الأخ أن يشكر أخاه ، وعلى الوالد أن يشكر ابنه ،
فإن الشكر يغسل القلوب من رواسب المنة .

٧ - وأولى من شكر الصديق الدفاع عنه باللسان
في غيبته ، مهما قصد بسوء ، أو تعرض لعرضه متهم
بتعريض أو تصريح . فحق الأخوة الانتصار لها باللسان
وباللسان ، والتشمير في الخاية والرعاية ، وتبكيك المتطاول ،
وتغليظ الخطاب معه . وفي هذا يقول رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « من رد عن عرض أخيه بالغيب رد الله عن
وجهه النار يوم القيامة » .

والعرض لا يقل أهمية عند المرء عن الجسم ، فإذا تركت
صاحبك تنوشه الألسنة فكأنك تركته للسباع تنهش لحمه .
وقد شبه القرآن المتطاول على عرض أخيه بمن يأكل لحم
أخيه ميتاً : « ولا يغتب بعضكم بعضاً . أياكم أحدكم أن يأكل
لحم أخيه ميتاً » ؟ !

فإذا ذكر أخوك أمامك وهو غائب ، فتصور أنه هو
الحاضر وأنت الغائب ، ثم تحدث بما تحب أن يتحدث به عنك
وأنت غائب . وقال مجاهد : « لا تذكر أخاك في غيبته إلا بما
يحب أن يذكر في غيبتك » . واختلاف نفسية الأخ نحو

أخيه تبعاً للحضور وللغياب رياء ممقوت فتصور دائماً أنه موجود معك ، أو من خلف حجاب ، وأنه مستمع لما أنت قائل فيه . قال بعضهم : « ما ذكر أخ لي بغيب إلا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال في » . وإخلاص الود هو أن يستوى الأمر بينك وبين أخيك سواء في الغيب وفي الشهود ، وفي السر والعلانية .

٨ - ومن الخترق المفروضة للأخ على اللسان التعليم والنصيحة في الدين والدنيا . وذلك بأن ترشده إلى مكارم الأخلاق . فإن علمته ولم يتعلم فعليك بالنصيحة ، بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائده تركه . وتنبيهه إلى عيوبه في صدق وأمانة . وقد علمت أن الصديق مرآة أخيه ، ومرآة الحسناء تصدقها التصوير من غير تزيد أو نقص .

والنصيحة فن وذوق ومهما كانت الكلفة مرفوعة بين الأخوين ومهما كان الود وثيقاً فلا يدعوا ذلك إلى المجابهة بالغيب أو الجفاء في القول . فإن الحديث عن العيوب ثقیل على كل نفس تنفر منه الطبيعة لما جبلت عليه من التطلع إلى الكمال . وكثيراً ما يشغل نصيح الأم على وحيدها ، وتوجيه الوالد على ابنه . وإذا لم يحسن كل منهما التأني لذلك في أناة ورفق

تحول النصيح إلى عناد ثم إلى تبجح ثم إلى فساد .

وأول آداب النصيحة أن تكون بينك وبينه ، ، فما كان في الملأ فهو توبيخ وفضيحة ، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة . . وقال الشافعي رضى عنه : « من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » . وقد ضرب الله لنا المثل الأعلى في ذلك ، فهو يعاتب أحبائه يوم القيامة بينه وبينهم . أما أعداؤه فيشهر بهم على ملأ من الناس ، وتنطق جوارحهم بما كسبت ، وتشهد عما فعلت . نعوذ بالله من الخزي يوم العرض على الديان .

ومن آداب النصيحة أن تميز بين ما يمكن فيه النصيح ، وما لا فائدة من الحديث عنه . وعيوب المرء إما تكون عيوباً خلقية جسمانية لا حيلة للمرء في تنويمها كالقماء والمرض والضعف ، أو تكون عيوباً نفسية قد علمها المرء وأحسها من نفسه ، ولكنه لا يستطيع التخلص منها لضعف الهمة ووهن العزيمة . فليس هناك فائدة من الحديث عنها في الأولى ، لأنه لا يستطيع أن يخلق نفسه ، وكل امرئ يتمنى أن يكون خلقه في أحسن صورة . كما أنه لا فائدة من الحديث في الثانية . لأنه يعلمها ، ولكنه غير قادر على مغالبة الطبع ، والتحكم في الجبلة ،

فتذكرك له بها تذكير له بالصراع النفسى الذى يقوم بينه وبين نفسه من أجلها ، فتسبب له الضيق والهم من غير وصول إلى نتيجة ، فترك الحديث عن هذا الصنف من العيوب أليق بالصدق وأسلم . ولا يدعو التبسط وترك الكلفة إلى السخرية والمزء منه ، وإلى التناؤذ بالألقاب ، والتنادى بأسماء المعرات والإهانات .

والصنف الثانى من العيوب وهى ما كانت خلقية وليدة التعود ، أو العلم الخاطىء ، أو الفهم المنحرف . وهذه يسهل علاجها بالتنبيه والإرشاد ، والتذكير والهداية . ومن واجبك أن تدعوه لعلاجها ، وتحثه على ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة . وعليه أن يتقبل ذلك بقبول حسن . وكان عمر يقول : « رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه » . ولا تأخذه العزة بالإثم ، فيتحقق فيه قول الله تعالى عن الكافرين : « ولكن لا يحبون النصحين » .

ومن أدب النصيحة للإخوان أن تاجأ إلى التعريض دون التصريح ، وإذا أمكن المكاتبة دون المشافهة كان أدعى لنهاب ما يحسه المرء من ضيق المواجهة بالنصيحة . وقد قلت فى أول

الحديث إن النصيحة فن وذوق ، وهنا يظهر الذوق الكريم
والفن الدقيق في الوصول إلى الغرض دون المساس بإحساس
أخيك . والكريم البصير هو الذي يعطيك وكأنه يأخذ
منك ! !

٩ — ويجب أن تتذكر دائماً أيها الأخ أن هناك مشاكل
خاصة لكل فرد ، لا يجب أن يطلع عليها أحدهما كان
ولا يستسيغ الحديث عنها بخارق كالأمر التي تتعلق بأحوال
الأسر ، وأحوال العلاقات القلبية ، وأحوال وسائل العيش ،
وليس من حق الصديق أن يحشر أنفه فيها إلا إذا بدأه أخوه
بالحديث عنها . والدخول في التفاصيل الخاصة بالإخوان
مشرب تأباه الشرائع والأذواق !

يقول الدكتور دونالدليارد في كتابه (فن معاملة الناس)
ص ٣٤ :

« إن الشخص الذي ينتقد عند ما يرى ضرورة للانتقاد
والذي ينتقد بالطريقة الصحيحة هو في الحق نادر الوجود .
إنه السائس الحقيقي » .

ويقول عن ضابط طيار كان قد تدرب على الطيران

وبعد أن طار مدربه معه مرتين أو ثلاثاً أراد أن يمتحنه ،
فطلب إليه أن يقود الطائرة بمفرده ، وتمكن الشاب بعد
جهد أن يرتفع بالطائرة في الجو . ولكن أعصابه خائفة
فظلت الطائرة تتراقص وتنقلب ذات اليمين وذات الشمال .
فقال الطيار في نفسه : إننى لابد مطرود فلأحاول الوصول
إلى الأرض بأية كيفية .

وبلغ الأرض بعد أن اصطدم بها وقفزت الطائرة
في الهواء خمسة عشر قدماً . وما كاد يخرج من الطائرة حتى
هرع إليه مدربه قائلاً له : مرحى لك يا بنى ! ها قد نجحت
في النزول ، وها هى طائرتك قطعة واحدة ، إن فيك جميع
مؤهلات الطيار !

لقد ارتكب الشاب في طيرانه عدة أخطاء ، ولكن
المدرّب الحكيم لم يشأ أن يصدر عنه غير المديح والثناء
بادئ الرأي . ويرى أن الناقد يجب أن يبدأ نقده :

- ١ - على انفراد . ٢ - بالتسامة .
- ٣ - مبتدئاً بالثناء . ٤ - مثيراً الشوق في نفس المنقود .
- ٥ - بالترييت على الظهر .

تناسى الهفوات

واللبيب من ينظر إلى طبائع الأشياء ثم يكون حكمه وتصرفه وفاق هذه الطبائع . فإنه يريح ويستريح . والإنسان مجبول على الخطيئة منذ سنها آدم الأب الأول حين عصى الله وأكل من الشجرة ، وقال له الله ولزوجي : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » كما أن الله أراد التفرد لذاته بالكمال ، ولم يشاركه في صفاته أحد ، ولهذا لا تبحث عن الكمال في إخوانك ، وإذا رمت عدم النقص فقد رمت المحال .

وإذا أدركت هذه الحقائق سهل عليك أن تعيش وأن يُعاش معك ، وطاب لك أن تؤاخي وأن تؤاخي .

وقد قالت الحكماء : « مما يجب للصديق على الصديق ، الإغضاء عن زلاته ، والتجاوز عن سيئاته ، فإن رجع وأعتب وإلا عانته بلا إكثار ، فإن كثرة العتاب مدرجة للقطيعة ، .

وحسبك من أخيك بعضه ، فإنك إن طلبت منه ما تبتغي
فإن تصل إلى ود ، وقد قيل : « من لك بأخيك كله » ، وقالوا :
ولست بمستبق أخا لا تله على شعث أى الرجال المذهب
وقد قسم الإمام الغزالي خطأ الأخوان إلى نوعين :
أحدهما ما كان الخطأ بارتكاب معصية في حق الله
سبحانه وتعالى .

والثاني ما كان تقصيراً في حق الأخوة .

وهو يرى أن ما يكون في الدين من ارتكاب معصية
أو الإصرار عليها فعلى الأخ التلطف مع أخيه في نصحه —
مراعياً آداب النصيحة التى أشرنا إليها فيما سبق — حتى يعود
إلى رشده ، ويقطع عن غيه ، ويرجع إلى سابق العهد منه
فإن لم تقدر وبقي مصراً فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين
في الإبقاء على مودته ، أو قطع أخوته .

فمذهب أبي ذر — رضى الله عنه — وجوب الانقطاع
عنه ، وقد قال : « إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه
من حيث أحبته » . وهو بذلك يشير إلى أساس العلاقة التى

تقوم بين الأخوان ، وهى علاقة الصلاح والمحبة فى الله فإذا فقد ذلك فقد فقدت الأخوة ووجب قطعها .

ومذهب أبى الدرداء — رضى الله عنه — ألا يبادر المرء بفصم عرى مودة الشاردين من أخوانه ، بل عليه أن يدرك أن الأخوة لا يعلم فضلها إلا عند الحاجة ، وأن الأخ الضال فى حاجة إلى من يأخذ بيده ، ويقوده إلى الرشاد . وقد حكى عن أخوين من الصالحين انقلب أحدهما عن الاستقامة ، فقبل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره . فقال : أحوج ما كان لى فى هذا الوقت ، لما وقع فى عثرته أن آخذ بيده ، وأتلف له فى المعاتبة ، وأدعوه بالعودة على ما كان عليه . وروى أن أخوين عابدين كانا فى جبل نزل أحدهما ليشتري من المصر لحما بدرهم ، فرأى بغيا عند اللحام فرمقها وعشقها ، واجتذبها إلى خلوة ، وواقعها . ثم أقام عندها ثلاثا واستحى أن يرجع إلى أخيه حياء من جنائته . فافتقده أخوه واهتم بشأنه ، فنزل إلى المدينة ، فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها فاعتنقه ، وجعل يقبله ويلتزمه . وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحياؤه منه .

فقال له أخوه : قم يا أخى ، فقد علمت شأنك وقصتك ،
وما كنت قط أحب إلى وأعز من ساعتك هذه . فلما رأى
أخوه المخطيء أن ذلك لم يسقطه من عينه ، قام وانصرف معه .
وهذه القصة التصويرية تبين لنا الطريقة التربوية الناجحة
فقد الأيدي للعائرين لنستنهضهم ، ونأخذ بأيديهم يحيى في
نفوسهم الأمل من جديد ، ويمدحهم بقوة لمعاودة الثبات على
الطريق . أما نظرات السخرية والاحتقار فتأتى على بقايا
الخير في قلوبهم ، ويفضلون التماذى في سقوطهم .

ويعلى أبو الدرداء مذهبه بقوله : « إذا تضرع أخوك ،
وحال عما كان عليه ، فلا تدعه لأجل ذلك . فإن أخاك يعوج
مرة ويستقيم أخرى ، . وإلى هذا التعليل ذهب إبراهيم
النخعي حيث يقول : لا تقطع أخاك ، ولا تهجره عند الذنب
يذنبه ، فإنه يرتكبه اليوم ، ويتركه غدا .

ويذهب إلى رأى أبي الدرداء الغزالي أيضا ، ويصف
مذهب أبي ذر بأنه أسلم وأحسن ، أما الآخر فهو اللطف
وأفقه . ثم يقول :

« فإن قلت : ولم قلت هذه اللطف وأفقه ، ومقارن

هذه المعصية لا تجوز مؤاخاتة ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء .
لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة
عقد الأخوة التعاون في الدين ، ولا يستمر ذلك مع مقارفة
المعصية . فأقول أما كونه اللطف فلما فيه من الرفق والاستمالة
والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة ، لاستمرار الحياء
عند دوام الصحبة . . . وأما كونه أفقه فمن حيث إن الأخوة
عقد يُنزل منزلة القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب
الوفاء ، بموجب العقد . ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته
وفقره . وفقر الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة ،
وألتمت به آفة افتقر بسببها في دينه ، فينبغي أن يراقب ويراعى
ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص .
والإبقاء على المودات ، وعدم المبادرة إلى فصرها هو
نهج الكرام ، وخطئة الشمايل الأصيلة . ويشهد لهذا النهج
مادعا إليه الشرع الحكيم من الإبقاء على أواصر الأسرة
وأخذ العلاقة بين الزوجين بالرفق والعفو والتسامح ، وعدم
المبادرة بقطعها لمجرد انحراف أحد الطرفين عن
السبيل القويم . .

ثم يستطرد الغزالي إلى توجيهه جدير بالتأمل حيث يرى أن مداومة الإخاء تربية للعصاة بطريق المحاكاة والتقليد ، فيقول : « والفاجر إذا صحب تقياً ، وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ويستحي من الإصرار ، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل ، فيحرص حياء منه ، قال جعفر بن سليمان : مهما فترت في العمل ، نظرت إلى محمد ابن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إلى نشاطي في العبادة وفارقني الكسل ، وعملت عليه أسبوعاً » .

والكن الأخوة تقتضي الرضا عن الصديق ، والرضا عنه يستدعي الرضا بأفعاله . فهل تبقى العلاقة كما هي ؟ يجيب عن ذلك أبو الدرداء رضي الله عنه لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : « إنما أبغض عمله ، وإلا فهو أخي ، وإخوة الدين أؤكد من إخوة القرابة » . ويوضح هذا التحديد ما خاطب به الله تعالى نبيه — صلى الله عليه وسلم — في حق قرابته : « فإن عصوك ، فقل : إني بريء مما تعملون » . ولم يأمره بالبراءة منهم . فليكن الحال بين الإخوان كما هو الحال بين الأقرباء .

(٢)

وفي ستر زلات الإخوان مناهضة للشيطان الذي يود الإيقاع بين الأحباء ، فإذا أنت لم تبادر بالقطعية قاومت الهدف الذي قصد إليه الشيطان . وفي هذا يقول سيد المرسلين : « لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك » . ويقول بعض السلف : « ود الشيطان أن يلقي على أخيك مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه فإذا انقيتم من محبة عدوكم ؟ » . وحكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه ، وقال : إني قد اعتلت فإن شئت أن لا تعقد على صحبتي لله فافعل . فقال : ما كنت أحل عقد أخوتك ، لأجل خطيئتك أبداً . ثم عقد أخوه بين نفسه وبين الله : أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله أخاه من هواه . فطوى أربعين يوماً ، وكل يوم يسأل أخاه عن هواه ، فكان أخوه يجيبه : القلب مقم على حاله . وما زال هو ينحل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه .

والخلاصة أن ابتداء معاشرة الفساق محذورة ، كما أن مفارقة الإخوان والأحباب محذورة .
ذا عن زاته في حق الله ، وخطئه في دينه . أما زاته في حقك

فما يختلف اثنان في وجوب العفو والاحتمال ، وإذا كان العفو مندوباً إليه في حق الناس جميعاً ، فهو في حق الأخوة من أول الواجبات .

ويجب تنزيه صاحبك عن قصد الإساءة إليك ، بأن تفسر ما يصدر منه على معنى جميل . وأكثر ما يحدث بين الناس من خلاف إنما هو من سوء الفهم لما يقولون ، ولما يفعلون . وكثيراً ما تصدر الكلمة بريئة يؤيد بها القائل وجهتك ، ولكنك بسوء الفهم والظن تحسبه يعارضك . وأكاد أجزم بأن تسعاً وتسعين في المائة مما يحدث بين الناس من خلاف وشجار مرجعه لسوء التفسير لحادثة ما أو لكلمة قيلت بقصد حسن ففهمت على غير وجهتها . وأكثر يحدث ذلك بين الأزواج والأحباب وعليكم بمراجعة الغضب الدفين الذي يقوم بين متحابين لتعلم أن ذلك كله مرجعه إلى كلمة قالتها الزوجة لصالح الزوج ففهمها نقداً له ، أو إلى كلمة قالها الزوج ففهمتها الزوجة على محمل غير كريم

فليكن رائدنا دائماً أن نسأل المتكلم عما يريد بكلامه لفهم قبل أن نحكم ، ولنتبين قبل أن نغضب .

(٣)

ومهما يكن من شيء فينبغي أن تستنبط لهفوة أخيك
الأعذار. فقد قيل: ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً.
فإن لم يقبله قلبك ، فرد اللوم على نفسك ؛ فتقول لقلبك :
ما أفساك يهتذر إليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله ، فأنت
معيب لا أخوك وعليك أن تسترضى نفسك نيابة عن
أخيك حتى ترضى ، وقد قال الشافعي : « . . . من استرضى فلم
يرض فهو شيطان ، وقال الأحنف : حق الصديق أن تحتمل
منه ثلاثاً : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة . وقال آخر :
ما شتمت أحداً قط ، لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق من
غفرها له ، أو لئيم فلا أجعل عرضي له غرضاً .

وإذا بادرك صديق بالاعتذار بعد الإساءة فقد أوفى ،
وعليك بقبول العذر مهما كان الوزر ، وسواء أكان صادقاً
أو كاذباً . وفي الحديث : « من لم يقبل من متصل عذراً ،
صادقاً كان أو كاذباً ، لم يرد على الحوض » :

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخ

وكننت أجازيه ، فأين التفاضل ؟

ويدعو بعضهم إلى ترك المعاتبة فلا تعاتب أخاك على فعله

خشية أن يجر العتاب إلى ما لا يحمد : ، إذا واخيت أحداً
في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه ، فإنك لا تأمن من
أن ترى في جوابه ما هو شر من الأول ، .
ويذهب الأدباء إلى أن العتاب يصفى الوداد ، ويذهب
الأحقاد :

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقى العتاب
وقال بعضهم : الصبر على مفضل الأخ خير من معاتبته ،
والمعاتبه خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقعة . وقال
على رضى الله عنه : لا تقطع أخاك على ارتياب ، ولا تهجره
دون استعتاب .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن .
ومن كلام زعيمنا الكريم : ، إذا كان يوم القيامة نادى مناد
بين يدي الله ، ألا من كانت له عند الله يد فليتقدم . فلا يتقدم
إلا من عفا عن مذنب ، .

فكيف بمن عفا عن أخيه ؟

الإخلاص والوفاء

(١)

والإخلاص هو أن يكون الرجل لصديقه في غيبته وبعده ، ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه ، مثل ما يكون له في شهوده ومعاشرته . فمن حقيقة المؤاخاة في الله عز وجل إخلاص المودة بالغيب وفي الشهود . ويقال : إن مسروقاً أدان ديناً ثقيلاً ، وكان على أخيه خيشمة دين ، فذهب مسروق ففضى دين خيشمة وهو لا يعلم ، وذهب خيشمة ففضى دين مسروق سرّاً وهو لا يعلم^(١) .

فالإخلاص استواء الغيب والشهادة ، واللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والجماعة والخلوة... والاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك ، بمأذقة في المودة . وهو دخل في الدين ، ووليجة في طريق المؤمنين ، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة . فإن حق

الصحبة ثقیل لا يطيقه إلا محقق ، فلا جرم أجره جزیل
لا یناله إلا موفق^(١) !

وفی هذا المعنی يقول الشاعر :

وما الخدن إلا من صفا لك وده

ومن هو ذو نصح وأنت مغیب

ومن الإخلاص أن لا تصادق عدواً لصديقك . وقد

قال الشافعی : . إذا أطاع صديقك عدوك ، فقد اشتركا
فی عداوتك . .

وكما يكون الإخلاص باستواء الغیب والحضور يكون

بالتفدية بالنفس ، وتعريض شخصك للمعاطب وفاء لصديقك .

عن أبي على الرباطی قال : صحبت عبد الله الرازی وكان یدخل

البادية فقال : علی أن تكون أنت الأمير أو أنا . فقلت : بل

أنت . فقال : وعلیک الطاعة . فقلت : نعم . فأخذ مخلاة ،

ووضع فیها الزاد وحملها علی ظهره ، فإذا قلت له : أعطنی .

قال : ألسنت قلت أنت الأمير ؟ فعلیك الطاعة . فأخذنا المطر

لیلة فوقف علی رأسی إلى الصبح وعلیه كساء ، وأنا جالس

يمنع عنى المطر . فكنت أقول فى نفسى : ليتنى مت ،
ولم أقل أنت الأمير !

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شئت فيه شمله ليجمعك
والإخلاص للصديق يستدعى أن يكون قلبك فارغاً من
الضغينة عليه ، خالياً من العتب ، صافياً وده ، غير مشوب
بشائبة . وجاء فى التوراة نعتاً لأمة محمد عليه الصلاة والسلام :
« إنه لا يحل لأمريء أن يخرج من عتبة بابه ، وفى قلبه
سخرية على أخيه ، .

(٢)

والوفاء هو أن تكون لأخيك بعد موته كما كنت له فى
حياته ، فينتقل الحب والود والإخاء إلى أهله وأصدقائه .
وكان من الصالحين من يخلف أخاه فى عياله بعد موته أربعين
سنة لا يفقدون إلا وجهه . ولا يدل على قوة الشفقة والحب
إلا تعديهما من المحبوب إلى كل ما يتعلق به ، حتى الكلب
على باب داره ينبغى أن يميز فى القلب عن سائر الكلاب
— والتعبير للغزالي عليه رحمة الله — أما تعبير الشعراء

فى ذلك فإنهم يرون الشمس على حائط أحببتهم أبهى وأجمل
منها فى أى مكان آخر ، وأن النسمة التى تمر بديارهم أطيب
منها وهى تمر بأينع الرياض . ومنهم من يقبل الجدار ، ويبكى
على الديار ... !

وقد عقد صاحب العقد الفريد فصلا بعنوان : مواصلتك
لمن كان يواصل أباك . ويروى من حديث أبى شيبه عن النبى
صلى الله عليه وسلم : « لا تقطع من كان يواصل أباك ، تطفئ
بذلك نوره ، فإن ودك ود أبيك » . وينقل عن أبى بكر :
الحب والبغض يتوارثان . وقال عبد الله بن مسعود : من بر
الحى بالميت أن يصل من كان يصل أباه .

ومن الوفاء أن تكون المودة فى الله ، وليست قائمة على
غرض من الأغراض . لأن مثل هذه المودات تستنفد إذا
استنفدت أغراضها ، وتزول بزوال أسبابها . وألا تكون
مع حسد فى دين أو فى دنيا . ولهذا وصف الله عباده بقوله :
« ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على
أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » . وقد فسر وجود الحاجة
بالحسد . وكيف يتأتى منك الحسد لأخيك . ومعنى الحسد

تمنى زوال النعمة عنه . وأنت ترى فيه نفسك . فكأنى بك
تتمنى زوال النعمة عنك ، وما هذا بخاطر مفكر أو عاقل .
ومن الوفاء ألا يتغير حالك مع صديقك بارتفاع شأنك
وعلو قدرك ، وعظم جاهك بولاية أو منصب أو مال وتغير
النفوس بما يطرأ عليها من أحوال دليل على ضعفها ولؤم
طبيعتها . والنفوس الكريمة هي التي لا يزدهيها عز طرأ ،
ولا فقر نزل . ولهذا أوصى بعض السلف ابنه فقال : يا بني
لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك ،
وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك ، وإن علت مرتبته لم يرتفع
عليك . وقالت الحكماء : لا شيء أضيع من مودة من لا وفاء
له ، واصطناع من لا شكر عنده . والكريم يود الكريم
عن لقية واحدة . واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة
صديق كلها استغنيت عنهم وأعداء إذا جهد البلاء
ومن الوفاء ألا توافق أخاك فيما يخالف الحق فيما يتعلق
بالدين ، والموافقة له في هذا غش وخداع ، وليس من النصيح
أو الوفاء ... عليك أن تقول له كلمة حق لتصلح به أمر دينه
من غير استحياء أو تجمل ، مسترشداً بخلق الدعوة الحكيمة

والموعظة الحسنة . وكان الشافعي — رضى الله عنه قد آخى
محمد بن الحـكم ، وكان يقربه ، ويقبل عليه ، ويقول :
ما يقيمنى بمصر غيره . ولما اعتل محمد عاده الشافعي وقال فيه :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذى عليه
وأنى الحبيب يعودنى فبرئت من نظرى إليه

وقد اعتقد الناس أن الشافعي سيفوض إليه أمر حلقة
بعد وفاته بسبب هذا الود ، فقبل له في علمته التي مات فيها :
إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشرف له محمد بن
عبد الحكم ، وهو عند رأسه ليومئذ إليه . ولكن الشافعي
— رضى الله عنه — قال : سبحان الله ! أشك في هذا ؟ !
أبو يعقوب البويطى .. ومع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه
كله إلى جوار ما بينهما من علائق ، ولكن كان البويطى
أفضل وأقرب إلى الزهد والورع . وبهذا نصح الشافعي لله
والمسلمين ، تاركاً المداهنة ، مؤثراً الصالح العام ، على عواطفه
الخاصة نحو صديقه !

وتمام الوفاء إحساسك بأنك وأخاك جسم واحد فتجزع

لفراقه . وتنفر من البعد عنه ، وتحن إليه ، وتشتاق لرؤيته .
وكانوا يفضلون نوائب الزمان على فرقة الأحباب :
وجدت مصيبات الزمان جميعها

سوى فرقة الأحباب هيئة الخطب

وقد أنشد ابن عيينة هذا البيت وقال :

« لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ، ما يخيّل
إلى أن حسرتهم ذهبت من قلبي » .
ومن الإخلاص ألا تسمع بلاغات الناس عن صديقك ،
وخاصة ممن يلبسون حلال المودة لكي يجدوا الفرص المواتية
للطعن في أعراض من يريدون . ولو صح منهم الوداد ما طاب
لهم الانتقاص .

ومن الإخلاص الأخوان إخلاص الدعاء لهم بالخير
في حياتهم ، وبعد مماتهم . فتدعو لهم بمثل ما تدعو لنفسك
ولأهلك ولولدك . وأنت حين ما تدعو لهم إنما تدعو لنفسك
على التحقيق مصداقا لقول الرسول الكريم صلى الله عليه
وسلم : « إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب ، قال الملك :
« ولك مثل ذلك » .. وفي لفظ آخر : « بك أبدا يا عبدي » .

وإشار أخيك بالدعاء من دواعي الإخلاص الذي تستجاب بسببه الدعوات ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » . وفي حديث آخر : « دعوة الرجل لأخيه في ظهر الغيب لا ترد » .

وقد علمت أن المرء إذا مات انقطع عمله إلا من صدقة جارية ، أو من علم ينتفع به ، أو من ولد صالح يدعو له . ومثل الولد الأخ الصالح ، بل أين الولد من الأخ ؟ ! وفي ذلك يقول الأصفهاني : « أين مثل الأخ الصالح ، أهلك يقتسمون ميراثك ، ويتنعمون بما خلفت . وهو منفرد بحزنك ، مهتم بما قدمت ، وماصرت إليه ، يدعو لك في ظلمة الليل ، وأنت تحت أطباق الثرى » .

وإذا كنت تهدي إلى أخيك وهو حي ، فاعلم أن الهدية إليه وهو في قبره الدعاء . وفي ذلك يقول بعض السلف : الدعاء للأموات ، كالهدايا للأحياء !

الواجب السابع :

ترك التكلف

(١)

سألت نفسي كثيرا بعد أن عشت في المدن ، ورأيت من طباع سكانها النفور من الضيوف ، والانقباض من الوافدين إليهم ، وعدم الترحيب بدعوة الإخوان إلى طعام أو إلى شراب .

ما هو السر في انطباع أهل الحضر على هذا الخلق مع ما هم فيه من بسط في الرزق ، وسعة في العيش ، وفضل في النفقة ؟ وما هو السر في انطباع أهل الريف وأهل البداوة على الكرم ، والترحيب بالنازل مع ما هم فيه من شظف العيش ، وخشونة المقام ؟

وقد وجدت الجواب في قول الفضيل :

« إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه ، .

وإذا بحثت في طبائع أهل المدن وجدت أنهم لا يقلون عن أهل الريف حبا للتضحية ، وإيثارا للبذل — وكثير

من أهل المدن نازحون من الريف — وإنما يفسد طبيعتهم من هذه الناحية حبهم للتكلف في جميع الأمور ، والظهور بمظهر مجسم عن مظهرهم الطبيعي ، مما لا تواتيهم به الفرص في كل وقت . فيأثرون الراحة والفرار من الميدان . ويندر أن يدعو أحدهم إخوانه إلى طعام أو يرحب بهم في استضافة ! وقد يحدث أحيانا . ولكنه يرهقهم ويكلفهم من أمرهم شططاً .

والملاحظ أن عادة التكلف تتقدم بتقدم الارتقاء الحضارى . وكلما كان المرء قريباً من البداوة بعد عنه التكلف واقترب من الإيثار ، والرغبة في البذل والشوق إلى استضافة الأصدقاء .. وقد تشاهد الطالب البسيط يؤثر زواره بالطعام والمقام ، لأنه يأمن النقد ، ولا يغرق في التكلف ، فإذا ما استوى عوده ، وأصبح رجلاً له راتب كبير ، ومظهر وقور ، حرص على ألا يعرض نفسه لمواطن الامتحان ، ويخشى دعوة زملائه وأقرانه إلى مقام أو إلى طعام خشية أن يدركوا مستواه المعيشى . ولأن التقدم الحضارى الذى كسبه بالعلم وبالحياة العصرية ، وبالتقدم فى السن يحتم عليه

الظهور بمظهر براق ، مما يدعو إلى التكلف ، فيثقل على نفسه دعوة الناس إلى الطعام .

وقد لاحظت أيضا أن الأشخاص الذين لا يحرصون في منازلهم على الظهور بمظهر منتفخ هم أسرع الناس إلى دعوة الإخوان ، وأحرصهم على التودد لهم ، بتقريب ما حضر من طعام أو شراب ، دون افتعال أو اعتمال .

وأقل الناس بعداً عن الإخوان ، وفراراً من لقائهم هم الذين يضعون لأنفسهم مظهراً خاصاً في أعين الناس ، ويحرصون عليه دائماً ، فلا يحبون أن يراهم أحد في مستوى أقل من هذا المظهر البراق .

ولاحظت أيضاً أن موائد أمراء البادية العربية في الزمن السابق كانت تمتد للطاعمين في كل آن ، وفي كل حين وبمناسبة وغيرها . وذلك لأن الموائد لم تكن تزيد على طعام طيب بسيط يسد الأفواه ، ويملا البطون .

وفي الأيام الأخيرة شاهدنا هذه الموائد مرفوعة ، بعد أن كانت مبسوفة ، شاهدناها مرفوعة على موائد عصرية

فاخرة ، وقد صفت حولها المقاعد الأنيقة ، وزينت بالطريقة الحديثة . . .

وبارتفاعها عن الأرض إلى مستوى الحضارة ، ومستوى التأنق والتكلف ، رفعت عن العامة ، فلا تمتد إليها كل يد ، ولا ينالها كل جائع ، وصارت مطوية في الكثير ولا تبسط إلا قليلا .

(٣)

لم هذا كله ؟ لأن أمراء البادية آثروا التكلف ، وأغرموا بالتفنن . وقد شاهدت هذه الموائد مبسوطة في أيام عزيزة مع أن كثيرا ممن سبقوني تحدثوا عن كثرتها في الماضي يوم كانت مبسوطة على فراش البساطة ، يقعى حولها الآكلون ، ويتجمع حولها المشردون من كل صوب .

وإن أخشى ما أخشاه أن ترتفع درجة الحضارة ارتفاعا كبيرا ، فتختفي البساطة كلها ، وترتفع بارتفاع الحضارة موائد الأمراء فلا تبسط أبدا .

من هذه الملاحظات نستطيع أن نتبين أثر التكلف في الطبائع البشرية ، وأنه يقتل كثيرا من خصائص النفوس الكريمة ، ويجعل الحياة عبئا ثقيلا ، ويمنعنا من أن نعيش

وفق ما نبتغى وما تدعو إليه طبائعنا . وكم من مرة ومرات
تحدثك نفسك بدعوة أخ أو صديق أو زائر إلى منزلك
ولكنك تحجم خوف ألا توفق في الظهور بالمظهر اللائق ! .

والحرص على إرضاء الناس ، والاستحواذ على ثنائهم
شرك بالله لا يليق بمن أخلص العبادة للخلاق . وقد قيل
للحسن : يا أبا سعيد ، إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم
إلا تتبع سقطات كلامك ، وتعنيك بالسؤال . فتبسم وقال
للقائل : هون على نفسك فإني حدثت نفسي بسكنى الجنان
ومجاورة الرحمن فطمعت ، وما حدثت نفسي بالسلامة
من الناس ، لأنى علمت أن خالقهم ، ورازقهم ، ومحييهم ،
ومميتهم لم يسلم منهم ، وقال موسى — عليه الصلاة والسلام — :
يا رب احبس عني السنة الناس . فقال : يا موسى هذا شيء
لم أصطفه لنفسي ، فكيف أفعله بك ؟ .

فأنت يا أخى إذا أقمت لنقد الناس ، أو لحكم الخلائق
مكاناً فى قلبك فقد أتعبت نفسك ، وحجبك ذلك عن السير
فى خطتك ، والمضى إلى غايتك . ولكن عليك أن تسقط

الخلائق من الحساب ، ما دمت ماضياً في طريقك ، مستبصراً
بهدي رسولك الكريم .

وعليك بترك التكلف مع إخوانك فإن إظهار التكلف
مع الأخ دليل على أن المودة بينهما ليست خالصة ولا صافية .
وفي ذلك يقول الجنيد : « ماتواخي اثنان في الله فاستوحش
أحدهما من صاحبه ، أو احتشم إلا لعلة في أحدهما » . وقال
عليه الصلاة والسلام : « شر الأصدقاء من تكلف لك ومن
أحوجك إلى مداراة ، وأجأك إلى اعتذار » وقيل لبعضهم :
من نصحب ؟ قال : من يرفع عنك ثقل التكلف ، وتسقط
بينك وبينه مؤنة التحفظ . وليكن شعورك أيها الأخ
بحضرة أخيك كشعورك وأنت منفرد ، فلا تتحفظ ولا
تتكلف حتى لا يشغل عليك أخوك ، ولا تثقل على نفسه .
فإن إطلاق النفس على سجيئتها أروح لها من إقامتها على نهج
خاص من الجلوس أو الحديث أو الطعام . وكان جعفر بن
محمد الصادق — رضى الله عنه — يقول : أثقل إخواني على ،
من يتكلف لي ، وأتحفظ منه . وأخفهم على قلبي من أكون
معه كما أكون وحدي .

(٣)

ومبالغتك في الطاعات ، وفي النوافل على غير ما تعودت
في خلوتك تكلف لأخيك ما ليس في طبعك ، وهو إلى
جانب ذلك رياء وخداع . فعليك باستواء حالك في الانفراد
وفي الاجتماع . كما أنه ليس من حق صديقك الانتقاص من
مكانتك إن رأى منك تقصيراً في أداء هذه النوافل ، وقد جعل
ضابط الإخاء الصادق :

« لا يزيد المرء عند أخيه بهر ، ولا ينقص عنده بمعصية » .
وكان الصوفية يتآخون على أربع معان : إن أكل
أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه : صم . وإن صام الدهر
كله لم يقل له : أفطر . وإن نام الليل كله لم يقل له : قم .
وإن صلى الليل كله لم يقل له : نيم !

وإذا كان التكلف بغيضاً بين الإخوان فقد كرهه
الرسول - عليه الصلاة والسلام : « أنا والاتقياء من أمتي
برآء من التكلف » . كما كرهه الصحابة - رضوان الله عليهم
- وقد قال بعض الصحابة : إن الله لعن المتكلفين .

وإسقاط التكلف بين الأخوين يديم الألفة والمحبة
وقد قيل : « من سقطت كلفته دامت ألفته . ومن خفت

مؤنته دامت مودته » . ولنقف طويلا عند هذا المبدأ الجميل
ولنجعل نصب أعيننا أن نخف المؤنة بيننا . وحسبك من
أخيك ما يقدم إليك ولو ثمرة . بل حسبك من أخيك بسط
وجه وحسن لقاء !

ومن تمام الانبساط وترك التكلف ألا تخفى على أخيك
سراً من أسرارك ، وأن تشاوره في أمورك كلها . وقد قال
تعالى : « وشاورهم في الأمر » . وأن تشكو إليه ما تحسه
من أحزان وما يصيبك من أزمات ، وأن تبش أفرحك ،
وتحدثه عن آمالك . وقد قيل : « إذا حدثت أخاك بأفراحك
تضاعفت ، وإذا حدثته بهومك تناصفت » ،

وكما تم الاتحاد بين الأخوين زال كثير من قواعد
الاجتماع وآدابه العامة كالاعتذار إلى صاحبك . والقيام له
عند القدوم . ويقول الغزالي في ذلك :
« فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية ،
فلا يسلك به إلا مسلك نفسه . لأن هذه الآداب الظاهرة
عنوان آداب الباطن وصفاء القلب . ومهما صفت القلوب
استغنى عن تكلف إظهار ما فيها . . . » (١) .

(١) الأحياء ٢ ص ١٥٣ ، ٢ - ص ٨ > ٢ .

ويجب إسقاط التكلف بين الإخوان في الطعام . وقد فسر بعض السلف التكلف ، بأن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت ، بل تقصد زيادة عليه في الجودة والقيمة . وقال بعضهم : ما أبالي بمن أتاني من إخواني فإني لا أنكلف له ، إنما أقرب ما عندي ، ولو تكلفت له لكرهت بجيئه ومالته . وقال بعضهم : كنت أدخل على أخ لي فيتكلف لي فقلت له : إنك لا تأكل وحدك هذا ، ولا أنا ، فما بالنا إذا اجتمعنا أكلناه ؟ فإما أن تقطع هذا التكلف أو أقطع الحجي . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره من الصحابة أنهم كانوا يقدمون ما حضر من الكسر اليابسة وحشف التمر . ويقولون : لا ندرى أيهما أعظم وزرا ، الذي يحتقر ما يقدم إليه ، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه ؟ .

وتلك حكمة جامعة تصور جبن المرء عن إظهار صفحته الصارفة لإخوانه من غير تكلف ، وأن ذلك منه لا يقل وزراً عن الزائر الذي يحتقر ما يقدم إليه من طعام ، وما أظن أن ذلك يفعله إلا النساء . فإما من عادة الرجال الحديث عن الطعام وعما قدم ، وعما كان يجب أن يقدم وإنما تلك عادة اللئكع من السيدات .

عدم التكليف

وفرق ما بين التكلف والتكليف أن الأول انبعاثي من تلقاء الشخص نفسه دون أن يدفعه إلى ذلك دافع خارجي ، أو مؤثر أجنبي ، وإنما يكون الدافع إليه الحرص على الظهور والرغبة في التفوق ، والبحث عن الشناء . كما سبق أن بينت . أما التكليف فهو أن تحمل صاحبك على فعل من الأفعال لم يكن يؤديه لولا حماك عليه ، وطلبك إليه . فالمؤثر هنا خارجي .

والتكلف مطالب محاربه من نفسك حتى لا تتعبها بمودة الإخوان ، وتآلف القرناء . أما التكليف فمطالب محاربه حتى لا تتعب غيرك بما يشق عليه .

وقد علمت فيما سبق حقوق الإخوان في المال ، وفي الجهد ، وفي اللسان . ولكن ليس معنى أن هذه حقوق الأخوة أن تتخذ من الإخوان مطية مسخرة لتحقيق أغراضنا وأهدافنا ، وأن نحول تلك العاطفة الروحية الجميلة

إلى سلعة تجارة قبيحة . بل ليتذكر كل أخ : أن الحقوق التي ذكرناها إنما هي واجبة عليه لأخيه . وإيست واجبة على أخيه له . وذلك مبدأ الإيثار والتضحية ، وهو أن ترى له عليك ولا ترى لك عليه شيئاً ، وذلك شأن المتفضل بالجميل دائماً . وقد قال بعضهم : « من اقتضى من إخوانه ما لا يقتضونه منهم فقد ظلمهم . ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم » . وقال بعض الحكماء : « من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا . ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم . ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا » . فعليك بطلب السلامة ، وأن تجعل نفسك دون قدرك ، وترى أخاك أولى بالتكريم والتجلة دونك . فلا تكلفه ما يشق عليه ، ولا تحاول أن تستمد من جاهه أو ماله ، ولا تكلفه التواضع لك ، ولا التفقد لأحوالك ، ولا تستخدمه في شئونك . بل لا تقصد من محبته إلا وجه الله تعالى ، تبركاً بدعائه ، واستئناساً ببلقائه .

وكما لا تتقاضى شيئاً من ماله أو جاهه ، لا تتقاضى شيئاً من حياته . فلا تحمله على الاعتذار إذا أساء ، ولا تنتظر

منه الشكر إذا أحسنت إليه . بل لتعتذر إلى نفسك بنفسك وتشكر الله على توفيقك للقيام ببعض شئون أخيك . وقد قيل : « لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ، ويعتذر إليك إذا أسأت ، ويحمل عنك مؤنة نفسك ، ويكفيك مؤنة نفسه » .

وقد يكون عجيباً أن نطالبك بحقوق أخيك ، ولا نرى لك على أخيك هذا الحق ! ولكن هذا منهج النفوس الخالصة التي تؤاخي لله ، ولا تؤاخي لحظوظ نفسها ، وتكون نيتها أن تفيد وتنفع ، لا أن تستفيد وتستغل . وقد قال رجل للجنيد : قد عز الإخوان في هذا الزمان . أين أخ لي في الله ؟ ! فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثاً . فلما أكثر ، قال له الجنيد : إن أردت أخا يكفيك مؤنتك ، وتحمل أذاك ، فهذا لعمرى قليل ! وإن أردت أخا في الله ، تحمل مؤنته ، وتصبر على أذاه ، فعندي جماعة أعرفهم لك ! فسكت الرجل . وقد أوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - : إن أطعني فما أكثر إخوانك .

وطاعة الله لا تكون إلا بالصبر على أذى الإخوان .

ومواساتهم ، وبهذا تكثر الإخوان . وقال بعضهم : صحبت
الناس خمسين سنة فما وقع بيني وبينهم خلاف ، فإني كنت
معهم على نفسى .

وبالحكمة والتضحية والوداد يسان الإخاء . وفى هذا
يقول معاوية : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ،
لأنهم إذا أرخوا شددت ، وإذا شدوا أرخيت » وقد كانت
هذه السياسة الوديدة سبباً فى استقرار الأمور له ، فى وقت
كان من العسير أن تجتمع الكلمة لمثله !

ولا يستقيم حالك مع الإخوان إلا إذا رجعت إلى
نفسك ، وطببت لكبرياتها ، وعالجت غرورها . حتى ترى
نفسك دون إخوانك ، فتحسن بهم الظن ، وتسمى الظن
بنفسك . وإذا بلغت هذه المرتبة من التواضع ، فاعلم أنك
عندهم أخيرهم . ولذلك قال أبو معاوية الأسود : إخوانى
كلهم خير منى . قيل : وكيف ذلك ؟ . قال : كلهم يرى لى
الفضل عليه ، ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى . ولهذا
قال سفيان : إذا قيل لك : ياشر الناس ، فغضبت ، فأنت
شر الناس . إذ يذبحى أن تعتقد فى نفسك أنك شر الناس ،

وإلا فقد وضعت نفسك في منزلة لا تدرى هل يرفعك الله إليها . ولا يكون هذا إلا غرورا وخداعا .

وعليك إن رأيت من أخيك هذا التواضع أن تكبر ذلك فيه ، ولا تعد ذلك من بلهه ، أو ضعفه ، أو صغاره أمامك . بل كلما ازداد تواضعا ازدادت له إكباراً . وكلما ازداد تقرباً زدت له إعزازاً . وإلا كنت لئيمًا :

تذال لمن إن تذلت له

يرى ذاك للفضل لا للبله

وجانب صداقة من لا يزال

على الأصدقاء يرى الفضل له

فإن وسوست لك نفسك بأنك تفضل صاحبك ، فقد

احتقرته . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه » .

وقد ضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم المثل

في الإخاء حينما أخى علياً فشاركه في العلم ، وقاسمه في البدن ، وزوجه أفضل بناته .

ومن التكليف أن يقترح الأخ على أخيه إذا زاره

أو استضافه نوعاً من الطعام ، فربما يشق على المزور إحضاره ، ولا تيسر له الظروف لتقديمه فيحار ، إما أن يتعب نفسه ويشق عليها ليحققه ، أو يجد في نفسه حرجاً وحياء لعدم استجابته لما طلب أخوه . أما إذا خيره أخوه بين طعامين فليختر أيسرهما عليه . وكان من عادة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه إذا خير بين شيئين اختار أيسرهما . وقد يحدث أن يطلب الزائر إلى مضيفه حاجيات تعجزه وتدينه وقد بليت الطرق الصوفية في العصور الأخيرة بهذا اللون من الاستغلال . فترى المزيّف الدّعيّ منهم ينزل على إخوانه فيقترح عليهم إقامة ولائم خاصة ، وتقديم ألوان فاخرة من الطعام . ومقادير مشروطة ، ولا يجد هذا الدّعي لفرض سلطانه إلا البله من صفار المزارعين . وكثيراً ما يخرجهم ذلك ، ويضطرهم إلى الاستدانة ، أو بيع ماشيتهم الوحيدة التي يعتمدون عليها في كسب قوتهم . ولو تعلم هؤلاء الريفيون الأغرار قوة الحجة ، ومعارضة الضلال لاستقام الحال ، كما كان قبل ، فقد روى الأعمش عن أبي وائل أنه قال : مضيت مع صاحب لي نزور سليمان ، فقدم إلينا خبز شعير وملحاً

جريشاً . فقال صاحبي : لو كان في هذا الملح شعتر كان أطيب .
فخرج سلمان فرهن مطهرته ، واشترى سعترأ . فلما أكلنا .
قال صاحبي : الحمد لله الذي أقنعنا بما رزقنا . فقال سلمان :
لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة !! .
وإذ كان تكليف الأصدقاء أنواعا من الطعام خاصة
قد يثقل عليهم فيجب على الأخ أن يتحاشاه ، فإن كثيرين
يدركون الحالات الخاصة التي يجوز لهم فيها التبسط مع
الإخوان ، وفرض إرادتهم عليهم وذلك حين ترفع التكلفة
ويزول التحفظ ، ولا يجد الأخ غضاضة من الرفض عند عدم
القدرة أو عند عدم تيسر المطلوب . فإذا وجدت هذه الحالة
— والتي يجب على المرء أن يشق من وجودها أولا — فله أن
يطلب إلى أخيه ما شاء ، فإن ذلك مما يسر له صديقه . وقد
كان الشافعي نازلا عند الزعفراني ببغداد ، وكان الزعفراني
يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلها إلى
الجارية ، فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام ، وألحق بها لونا
آخر بخطه . فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر . وقال :
ما أمرت بهذا فعرضت عليه الرقعة ملحقا فيها خط الشافعي .

فلما وقع على خط الشافعي فرح بذلك وأعتق الجارية
ولكن كثيرين في الزمن الحاضر يتعجلون الوصول
إلى هذه الحالات قبل أوانها ، فتراهم يستبيحون لأنفسهم
بمجرد الإخاء أن يفرضوا على إخوانهم ما يريدون ، وأن
يفشوا منازلهم من غير دعوة ، وأن يفتشوا أوراقهم ومكاتبتهم
من غير استئذان . وقد لا يدركون أن هذه الإخوة من
طرف واحد أملاها على قلوبهم الاندفاع نحو أغراض يبتغوها
ولهذا يجب على الإخوان التثبت المتتابع من قوة العلاقة
بين إخوانهم ، حتى لا يبيحوا لأنفسهم الاختلاط بهم والتدخل
في شؤونهم ، والاقتراح عليهم إلا بعد يقين وعن بينة .

يا أخى ..

يا أخى .. آن لك أن تعرف موضعك بين البشرية جمعاء ..
فى روسيا يتنادون فيما بينهم : يارفيقى . وفى الشرق
حات الحكومات فيما تتنادى به . !
فالغت الألقاب ، واستبدلتها بكلمة « السيد » فى العراق
وسوريا ومصر :

ورأت مصر بعد ذلك أن هذا اللقب وصف فضفاض ..
ولكنها من الأسف عادت إليه من جديد . . . !
وكانه عز عليها ألا يكون فى مصر أسياد !
وتاريخ البشرية شاهد صادق على أن الشر لا يأتى إلا من
هذه السيادة .

وما ترتفع رؤوس الطفافة إلا حينما يصبح لمدلول كلمة
« السيد » معنى !

وما حُرقت الأديان إلا حينما زحفت إلى الرسل معنى
السيادة . وجرّت السيادة فى أذيالها وصف الألوهية ،
فسممنا عن « الثالوث المقدس » فى تاريخ المسيحية ؛ وصار

صاحب مصر الإله الأعلى : ما عرفتكم لكم إلهاً غيرى . . !
أما محمد عليه الصلاة والسلام - فقد وضع نفسه
من ربه موضع الخضوع والعبودية . وها هو ذا القرآن
الكريم يقص علينا قصة تكريمه العظيم حينما أراد أن يشرفه
بالحضرة الإلهية فيسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى ، ثم يرفعه إلى الملأ الأعلى ومع هذا كله يصفه بقوله :
« سبحان الذى أمرى بعبده ليلا من المسجد الحرام
إلى المسجد الأقصى » .

ومع أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - يعلم موضعه
بين البشرية وأنه سيد آدم ولا فخر ؛ مع ذلك كله فهو يأبى
أن تكون له السيادة بين الناس فينتهى عن ذلك ، ويطلب
منهم : « لا تسيدونى ، ومن معنى حديث له : خيرنى ربي
فى أن أكون ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً ، فاخترت أن
أكون عبداً رسولاً .

واختلفت الأئمة فيما بينهم فى كيفية دعاء الرسول
- عليه الصلاة والسلام - حين يُنادى باسمه فى الأذان
أو فى الصلاة . فذهب الأئمة كلهم ما عدا الشافعى إلى أن

يُنَادِي بِاسْمِهِ الْمَجْرَد : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » . وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَحْدَهُ إِلَى أَنَّ يُسَيِّدُ فِي النِّدَاءِ وَدَعَاءِ التَّشْهِيدِ . وَلَا نَدْرِي مِنْ أَيْنَ جَاءَ بِهِ .

فَهَلْ هُنَاكَ مَنْ وَلَدَ آدَمَ مِنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؟ . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَرْضَ لِنَفْسِهِ السِّيَادَةَ ، وَمَا نَادَاهُ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَتِهِ بِهَا . وَمَا رَضِيَ أَنْ يُسَمَّى مُنَاصِرُوهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَتْبَاعًا ، وَإِنَّمَا سَمَوْا صَحَابَةَ مُحَمَّدٍ . فَلْيَسُوا بِأَتْبَاعٍ وَلَا ذِيُولَ لَهُ ، وَإِنَّمَا هُمْ صَحَابَتُهُ . وَحِينَمَا نَظَّمُ الصَّفُوفَ لَمْ يَجْعَلْ سَيِّدًا وَمَسُودًا وَإِنَّمَا جَعَلَهَا أَخُوَّةً وَإِخَاءً . وَكَانَ هُوَ نَفْسَهُ أَخًا لِصَاحِبِي آخَرٍ . وَكَانُوا إِذَا اجْتَمَعُوا لِعِشَاءٍ لَمْ يَجْلِسْ جُلُوسَةَ الْجَبَّارِ يَخْدُمُهُ مِنْ حَوْلِهِ ، بَلْ قَامَ يُشَارِكُهُمْ وَيَجْمَعُ الْحُطْبَ مَعَهُمْ .

وَحِينَمَا يَتَحَدَّثُ اللَّهُ عَنْ رَسُولِهِ فِي كِتَابِهِ يُتَحَدَّثُ عَنْ الصَّحَابَةِ يَقُولُ : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ » . فَلَا يَفْرُقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ .

وَحِينَمَا كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَحْدَهُ لَمْ يَسْتَعْمَلْ مَعَهُ سِوَى ضَمِيرِ الْمَفْرُودِ لَا ضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ

فيقول : ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر .. ولا يحزنك قولهم إن العزة لله .. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ..
وحينما كان يخاطب من غير تخصيص كان يخاطب الرسول وصحابته في ضمير واحد . . . ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن . . . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . . . ولا تهنوا في ابتغاء القوم . . .

والوصف المردد لمحمد في القرآن هو لفظ « عبد الله » .
« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا . . . تبارك الذي نزل الفرقان على عبده . . . أليس الله بكاف عبده . . . فأوحى إلى عبده ما أوحى . . . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات . . .



فانزلوا من عليها سمائنكم أيها السادة ، ومحدثوا من هذا الغرور .

وارفعوا رؤوسكم أيها العبيد ، واعلموا أن أكبر رأس لا ترتفع عن الأرض أكثر مما ترتفع عنها أصغر رأس . . .
ارفعوا رؤوسكم ليصبح الجميع إخواناً .

أبها الأخ . . .

لأتدع الألقاب العلمية أو الدرجات المدرسية أو المهنة الصناعية تفرق بينك وبين الآخرين .

فلا تناد : يا دكتور ، أو يا أستاذ ، أو يا مهندس ،
أو يا حضرة الضابط أو غير ذلك من الألقاب .

ولكن ألغ هذه الاعتبارات ، وعد إلى الصلة التي ربطت
بها السماء النوع البشرى عامة ، والمسلمين خاصة . وقل له :

تعال يا أخى . . .

أشكرك يا أخى . . .

تقدم يا أخى . . .

إن لكلمة « أخى » ، عذوبة في الآذان ، ووقعا في الجنان ،
ورنة في الأبدان ، بما تولده من ثقة بين الطرفين ، تجعل
الكبير لا يحس بأنه فوق ، ولا الصغير يشعر بأنه تحت . !

تقدم يا أخى إلى رئيس الجمهورية وقل له : يا أخى نجيب ..
وما أظنه يغضب ، وما يعنيك من غضبه إن غضب لها ..

أنت أيها الخادم في مدرستك تقدم إلى مدير المدرسة
أو ناظرها وقل له : يا أخى . .

وأنت أيها الممرض في مستشفاك تقدم إلى طبيبك
وقل له : يا أخى .

وأنت أيها الجندى داخل ثكنتك تقدم إلى ضابطك
وقل له : يا أخى .

وأنت أيها العامل البسيط داخل مصنعك تقدم إلى
صاحب المصنع وناده : يا أخى .

هذا هو اللفظ الحبيب ، وما أعتقد أن هناك من
يتضايق منه . . .

حتى هؤلاء الطغاة لو كان عندهم عقل . . .

السنا نرضى كبرياء هؤلاء الطغاة بما نخلعه عليهم من
ألقاب وأنساب .

وهل هناك تكريم لمحدثك أعظم من أن تضعه
موضع أخيك .

إن الإنسان لا يعظم - بعد والده - أكثر من أخيه .

ولا يتمنى الخير لإنسان قبل أخيه ؛ ولا يخلص لإنسان إخلاصه لأخيه .

فأنت حينما تنادى أى مخلوق بهذا اللقب الحبيب فأنت تكرمه تكريما ما بعده تكريم ! .

* * *

وفرق ما بين هذا النداء الطلى الجميل : « يا أخى » وبين النداء التى اتخذته الدول الشيوعية : « يارفيق ، عميق عميق ودقيق دقيق .

إن الرفقة فيها معانى المصادفة التى تولدها أحيانا الزمالة فى العمل ، أو الزمالة فى الطريق ، أو الزمالة فى الدار ، أو غير ذلك ، فهى وليدة العوامل المادية المجردة . ولذلك كانت علاقة مادية جافة .

أما كلمة يا أخى . . .

إنها السحر والله . . . إنها الحب . . . إنها الإحساس النابع من القلب ، إنها العاطفة القوية الجياشة . إنها الروح العظيمة الموصولة بغيرها من البشرية . وأعضاء المجموعة الإنسانية .

يا أخى : إنه النداء العاطفى النبيل الذى يمكن أن تسمو
إلى مداه علاقات الأفراد . وليس بعد هذه العاطفة عاطفة
تربط بين شخصين .

يا أخى . . .

يا أخى الحبيب . . .

ضع يدى فى يدك لنعمل من أجل سعادة البشرية
وتقديم العون للناس ، والله معنا .

سلسلة أدب الإسلام

- ١ - أدب الأخوة .
- ٢ - أدب الزواج
- ٣ - أدب المال : (قواعد المال)
- ٤ - أدب الطعام .
- ٥ - أدب اللباس .
- ٦ - أدب السفر .
- ٧ - أدب الدعوة والدعاة .

بمشيئة الله تصدر هذه الحلقات على فترات متتالية
تعالج أدب الإسلام وتعاليم الرسول (ص) على ضوء
التجارب الحديثة .

للمؤلف بصدر قريباً بحسبنة الله :

نفسية الفراعنة

تحليل لنفسية الحاكم والمحكوم . ويرسل أضواء
كاشفة على عيوبنا الخالدة وإليك بعض موضوعاته :

- ١ - تذكرة يا أستاذ . . . !
- ٢ - فرعونية الأوضاع . . .
- ٣ - وفي العرب فرعونية .
- ٤ - وكيل الأزهر يلعب الجبل .
- ٥ - رجال عاشوا في العهدين .
- ٦ - قبلة لأنشته .
- ٧ - الرجل المريض للمنصب المريض
موضوعات شيقة من النقد اللاذع . . .
- ٧ قروش للاشتراك اتصل بالمؤلف : ٦ ش محمد علي
بمنيل الروضة . وعشرة قروش للنسخة بعد الطبع .